خوان كارلوس أونيتي

الوداعات

رواية

31.8.2015

ترجمة:

علاء شنانة

خوان كارلوس اونيتي

الوداعات

ترجمة

علاء شنانة

Twitter: @ketab_n

الـوداعـــات

Twitter: @ketab_n

اسم الكتاب: الوداعات

المؤلف: خوان كارلوس اونيتي

ترجمة: علاء شنانة

عدد الصفحات: 100

القياس: 14.5 ◆ 21.5

2012/1000م -1433هـ

© جميع الحقوق محفوظة

Copyright ninawa

سورية - دمشق - ص ب 4650

تلفاكس: 2314511 11 963 +

هاتف: 2326985 11 963 +

E-mail: ninawa@scs-net.org

www.ninawa.org

العمليات الفنية:

التنضيد والإخراج والطباعة وتصميم الغلاف

القسم الفني - دار نينوى

لا يجوز نقل او اقتباس، او ترجمة،

اي جزء من هذا الكتاب، بأية وسيلة كانت

دون إذن خطي مسبق من الناشر

Twitter: @ketab_n

العنوان الأصلي للرواية

Los adioses

Juan Carlos onetti

1954

Twitter: @ketab_n

إلى ايريا فيلارينيو

Twitter: @ketab_n

كنت أود لو لم أرى من الرجل، في المرة الأولى التي دخل فيها الدكان سوى يديه، بطيئة خائفة ومحرجة، تتحرك دون ثقة، طويلة لم يلفحها الهواء بعد ومعتذراً عن تصرفه اللامبالي. وجّه بعض الأسئلة وتناول زجاجة من الجعة، واقفاً في المكان الأشد عتمة عند منضدة الحانة، ملتفتاً بوجهه - بمنظر خلفي على أزواج من صنادل، تقويم ومعلبات ابيضّت مع مرور الزمن - نحو الخارج، تجاه شمس الغروب والمرتفعات البنفسجية للجبال، بينما كان ينتظر الحافلة التي ستقله إلى أبواب الفندق القديم.

كنت أود لو لم أرى سوى يديه، كان سيكفيني رؤيتهما عندما أعطيته باقي المئة (بيسو) والأصابع تضغط على الورقة النقدية، محاولة لمّها، لتصبح مكورة على الفور ولتخفها الأصابع بحياء في جيب المعطف. كان يمكن لحركات الأصابع تلك فوق خشب المنضدة الممتلئة بالندبات المشبعة بالشجوم والأوساخ أن تكفيني لأعرف أنه لن يُشفى، وأنه لا يعلم شيئاً عن كيف يستمد القوة ليُشفى.

Twitter: @ketab_n

عموماً، يكفيني رؤيتها ولا أذكر أني أخطأت ذات مرة، كنت دائماً أقوّم بنبوءاتي قبل أن أعرف آراء الطبيبين كاسترو أو غونز اللذان يعيشان في القرية، دون أي بيانات أخرى، دون الحاجة لشيء إلاّ لرؤية الوافدين الجدد إلى المتجر بحقائبهم، مع ما يحملون من جرعات مختلفة من العار والأمل، التكتمية والتحدي.

يعرف الممرض أني لا أخطئ، فعندما يأتي لتناول الطعام أو للعب الورق دائماً ما يلقي عليَّ نفس الأسئلة حول الوجوه الجديدة، ويسخر معي من كاسترو وغونز. ربما أنه يتملقني فحسب، وربما أنه يحترمني لأنني أعيش هنا منذ خمسة عشر عاماً أمضيت اثنا عشر عاماً منها أتدبر استمراري في الحياة بثلاثة أرباع رئة، لا أستطيع القول لماذا أصيب في تنبؤاتي، لكني أعرف أنه ليس لأني كنت مريضاً سابقاً. فيكفي أن أنظر إليهم، لا أكثر، وأحياناً من مجرد سماعهم، لن يستطيع الممرض فهم ذلك، ربما أنا أيضاً لا أفهمه تماماً: أحاول تخمين مدى أهمية ما قالوه لي، أهمية ما جاؤوا للبحث عنه، وأقارن واحدة بأخرى.

عندما وصل هذا في حافلة المدينة، كان الممرض جالساً يتناول طعامه في طاولة بجانب شباك النافذة، أحسست أنه يبحث عني بعينيه ليكتشف تشخيصي. دخل الرجل بحقيبة ومعطف طويل بأكتاف عريضة ومنقبضة، محيياً دون أن يبتسم لأن ابتسامته لم تكن لتصدق

Twitter: @ketab_n

ولأنها أصبحت عديمة الفائدة أو ذات نتائج عكسية منذ زمن طويل، سنوات طويلة قبل أن يصبح مريضاً. عاودت النظر إليه بينما كان يتناول الجعة، ميمماً وجهه تجاه الطريق والجبل، ونظرت إلى يديه وهو يعالج الورقة النقدية على المنضدة، على مرأى مني. لكنه لم يدفع عند المغادرة، وإنما قطع شرابه وجاء من الزاوية، بطيئاً، دون إشفاق على نفسه، مرتاب، ليدفع لي ويلم الأوراق بتلك الأصابع الشابة المخدرة من استحالة قدرته على إمساك الأشياء. عاد إلى الجعة والوضعية المدروسة المتجهة نحو الطريق، حتى لا يرى شيئاً، كأنه لم يكن يريد شيء آخر سوى أن لا يكون معنا، كما لو كان الرجال بقمصانهم المزركشة، والذين بلا حراك تقريباً في العتمة في نهاية انحسار اليوم الربيعي، يشكّلون رمزاً آخر أكثر وضوحاً لمعاناته، يمكن تفاديه بشكل أخف وطأة من الجبال التي بدأت تختلط بلون السماء.

- مرتاب - هذا ما كنت سأقوله للممرض لو كان قادراً على فهمي.

- مرتاب - كررتها تلك الليلة، مع نفسي. هذا هو، بالضبط مرتاب، ارتياب أفرزه هو نفسه، لشناعة القرار بعدم الكذب على نفسه. وداخل الارتياب، هناك يأس مكتوم دون عناء، محدود، بعفوية، بنقاء، عن السبب الذي جعله يُولد ويغذيه، يأس كان قد اعتاد عليه، وصار

Twitter: @ketab_n

يعرفه عن ظهر قلب. ليست المسألة أن يعتقد أن الشفاء ضرب من المحال، وإنما لا يؤمن بقيمة الشفاء، لا يؤمن بأهمية الشفاء.

كان نحو الأربعين عاماً، وتصرفاته فيها بعض الإهمال، كانت توحي بعدم النضج. عندما خرج ليستقل الحافلة، توقف الممرض عن النظر إليَّ، ورفع كأس النبيذ وتوجه بنظره نحو النافذة.

- وهذا؟ هل سيتماثل للشفاء أم لا؟ إذا ما كان مريضاً وذهب إلى الفندق، فسيستقبله غونز. عليَّ أن اسأله.

كان يقولها على سبيل المزاح أو ربما فكر أن يؤمّن على مريض محتمل لاعطاءه الحقنات. كان بودي أن أجلس وأحتسي النبيذ معه لأقول له شيئاً مما رأيته وتوقعته. كان لدي بعض الوقت: لم تُحضر الحافلة أي مسافر وكانت ساعة تناول الغذاء في بيوت الجبل. كنت أرغب بالتحدث لا سيما أن الممرض كان يدعوني، مبتسماً وهو جالس على الطاولة. لكني لم أخرج من خلف المنضدة، وأخذت أنزع الغبار عن المعلبات، وبالكاد بادرت بالكلام.

- نعم، إنه مصاب، دون شك. لكن ليس الأمر بهذه الخطورة، ليس حالة ميؤوساً منها . ومع ذلك، لن يُشفى.

- لماذا لن يشفى إذا ما كان ذلك بمقدوره؟ هل لأن غونز سيقتله؟

أنا أيضاً ضحكت، كان من السهل أن أقول له أنه لن يشفى لأنه

Twitter: @ketab_n

لم يكن يعنيه الشفاء، أنا والمرض كنا قد عرفنا الكثيرين على هذه الشاكلة.

رفعت كتفي وتابعت تنظيف المعلبات.

- أعتقد. قلت.

بعد ذلك أخذت أراه آتياً من الفندق في حافلة، منتظراً أمام المتجر الحافلة الأخرى التي تذهب إلى المدينة، لم يكن يدخل أبداً، وما يزال يرتدي نفس الملابس التي أتى بها، دائماً بربطة عنق وقبعة، مختلف، متميز، دون سراويل فضفاضة، دون صنادل، دون القمصان والمناديل الملونة التي كان يرتديها الآخرون. كان يصل بعد الغداء، مع البزة التي كان يرتديها في العاصمة، بعناد، محافظاً على هيئة الوحدة، متجاهلاً دوران الأرض، الحر والبرد، غير آبه بسلامة جسده، متخفياً ومحتمياً خلف ملابسه وقبعته وحذائه المغبّر الدال على قبوله بمرضه ووحدته.

علمت من الممرض أنه يذهب إلى المدينة في اليوم الذي يكون هناك قطار مغادراً إلى العاصمة لإرسال رسالتين، ومن مكتب البريد يذهب ليجلس أمام نافذة في مقهى، مقابل الكاتدرائية لتناول الجعة. كنت أتخيله، وحيداً وكسولاً ينظر إلى الكنيسة كما ينظر إلى الجبال من المتجر، دون أن توحي له بأي معنى، وراغباً بإلغائهم تقريباً، باذلاً

Twitter: @ketab_n

قصارى جهده على تشويه الصخور والأعمدة، والأدراج المظلمة. مطبّقاً بمثابرة وعناد قديم على إقناع ورشوة ما كان ينظر إليه، ليصبح كل شيء مجسداً الإحساس الطفيف باليأس الذي يظهره في المتجر، الحزن الذي كان يستعرضه دون أن يعرف ذلك أو دون احتمالية إخفائه في حال معرفته به.

كان يقوم برحلة لما يقارب الساعة إلى المدينة كي لا يرسل رسائله من المتجر، والذي كان أيضاً مكتباً للبريد، وكان يفعل ذلك بسبب أو نتيجة نفس التصلب، مسكوناً بهاجس عدم القبول، لأن يكون مخلصاً للعبته الساذجة أن لا يكون هنا وإنما هناك، اللعبة ذات القواعد المحددة، أن الآثار هي ذات أهمية أكثر بكثير من الأسباب وأن هذه يمكن استبدالها، تحسينها، أو نسيانها.

لم يكن في الفندق، لم يكن يعيش في القرية. لم ينصحه غونز بالذهاب إلى المصحة، كل هذا كان يمكن أن يُمحى لو لم يكن يدخل المتجر ليترك رسائله، كلما كان يتركها على المنضدة المطاطية لنافذة مكتب البريد في المدينة. كان الانقطاع سيصبح ملغياً لو كان بدلاً من إعطائي رسائله مثلما يفعل كل الذين يعيشون في القرية، ليشهد وقع الطابع، تديره يد رتيبة ومجهولة، يد متغيرة لا تتبع لأي وجه، ولا لأي زوج من العيون موعزة أنها تمارس منصباً ما. كان يمكنه تلافي الحاضر إذا ما

Twitter: @ketab_n

رأى الختم يضرب رسائله، طابعاً عليها، بجانب الكلمتين أو الثلاث كلمات لاسم، لعاصمة في مقاطعة، لمدينة يمكن زيارتها لأعمال تجارية.

لكن في بعض المرات، كان يدخل المتجر عند العودة من المدينة لتناول جعة أخرى. كان هذا يحصل في مساءات فاشلة، عندما يكون اسم المرأة الذي كان قد رسمه غير مفهوم، فجأة، وفي اللحظة الحاسمة عندما كان الختم يرتفع ليقع بضجيج ليّن ونابض. عندها يكون الاسم غير موجه لأحد، إنما اسماً عنيداً وشريراً يواجهه من صفيحة المطاط، ليوعز له أنه لربما كان الانفصال الذي يعانيه حقيقياً، وبأن الحمى التي تصيبه حقيقية.

رأيته يملئ الكأس ويفرغه بصمت، ناظراً إليه بشكل جانبي، متكئاً على المنضدة، مصارعاً فكرة أن الماضي لا يمكن الحفاظ عليه بدون أن يتغير، أن الأذن الأكثر غباءاً عليها أن تستمع لضجيج الماضي الذي يطلقه الماضي، لينحدر، ليبتعد، ليتغير، وليبقى على قيد الحياة. كان يغادر قبل أن يثمل ويأخذ بالسير نحو الفندق.

لكن الرسائل التي كانت تصله من العاصمة كنت استلمها أنا في المتجر وكنت أرسلها له مع الصبي ليفي، والذي كان يقوم بدور ساعي البريد رغم أنه لم يكن يتقاضى شيئاً مقابل هذا من مصلحة البريد، وإنما بعض المال الذي كنا ندفعه له في الفندق، المصحة وأنا.

Twitter: @ketab_n

ربما ظن الرجل أنني مهتم بما فيه الكفاية بالأشخاص والحالات، لدرجة فتح الرسائل مدفوعاً بالفضول بالأوضاع المختلفة التي لدى الناس. ربما من أجل هذا أيضاً كان يذهب إلى المدينة ليرسل رسائله، وربما لم يكن فقط لنفاد صبره والتي بعد أسابيع قليلة بدأ بالحضور إلى المتجر بحلول منتصف الظهر، بعد أن يكون سائق الحافلة قد رمى لي حقيبة نحيلة ومجعدة محتوية على الرسائل.

كان عليه أن يحضر، فقد فضّل أن يخرج من زاوية اللحم المقدد والتقويم وإجباري على الكلام، دون محاولة إقناعي، دون أن يخفي عدم اهتمامه بتعدد تهجئة الألقاب، مبيناً بأدب أن الشيء الوحيد الذي كان يسعى إليه هو جعلي أتذكر اسمه لتجنب سؤالي، كل مرة، إذا ما كانت قد وصلت رسالة له.

كانت ترده في البداية أربع أو خمس رسائل في الأسبوع، لكني سرعان ما استطعت، إلغاء الظروف التي كانت عبارة عن رسائل صداقة أو أعمال تجارية، مهتماً فقط بالرسائل التي كانت تصل بانتظام مكتوبة من قبل نفس الأيدي. كان هناك نوعان من الظروف. أحدهما بحبر أزرق، الآخر مكتوب بواسطة آلة كاتبة، كان يحاول أن يفصلهما بنظرة متزنة وسريعة، قبل أن يضعها في جيبه، و يعود إلى الزاوية المظلمة، مستعيداً وقفته الجانبية مقابل التقويم الفلكلوري المهترئ من الذباب

Twitter: @ketab_n

والدخان، ليعاود تناول جعته، تماماً بذات هدوء الأيام التي كنت أعطيه رسائله.

كان قد منعه الدكتور غونز من المشي كثيراً، لكنه كان يستخدم الحافلة فقط عائداً إلى الفندق عندما كان يحمل في جيبه أحد الظروف المكتوبة على الآلة الكاتبة. وليس للرغبة الملحة لقراءة الرسالة، وإنما للرغبة في أن ينعزل بنفسه في غرفته، راقداً في السرير بعينين محدقتين في السقف، أو يروح ذهاباً وإياباً من النافذة إلى الباب، لوحده مع حدّته، مع هاجسه، مع خوفه من الأمل، والرسالة ما تزال في جيبه أو ضاغطاً عليها بيده أو فوق الطاولة، بجانب الكتب الثلاثة وزجاجة الماء التي لم تُستخدم أبداً.

كان هناك نوعين من الظروف التي تعنيه. أحدهما كان يأتي مكتوباً بخط نسائي، عريض، مستدير، مع الحرف الكبير الذي يشبه علامة موسيقية، وأحرف الزاي مثل الرقم ثلاثة. الظروف، التي كانت تجعله يطيع غونز ويلتقط الحافلة، كانت أيضاً، واضح أنها من امرأة، بأحرف متطاولة وبلون خشبي، دائماً بتحديد غامق في الوسط، مكتوبة بآلة قديمة من نوع متسخ وغير متكافئ.

كنا في منتصف الربيع، مشوشين من شمس خفية، بليال رطبة، وبأمطار عديمة الجدوى. كان الممرض يصعد يومياً إلى الفندق،

Twitter: @ketab_n

بابتسامته الحماسية المحسّنة، نكاته وحقيبته الملأى بالأنابيب. كانت الخادمات تهبطن باستمرار إلى المتجر لطلب لوازم مؤونة الفندق أو لشراء شرائط أو عطور لهن، أو أي شيء لا يمكن انتظار تأخره من أجل خروجهن في نهايات الأسبوع. كن يتكلمن عن الرجل لأنه ولأسابيع كثيرة، رغم وصول نزلاء آخرين، كان ما زال هو «الجديد»، أيضاً المرض كان يتكلم، لأنه كان بحاجة لأن يتملقني وكان قد فهم أن الرجل يهمني أمره. كان يعيش في كراج المتجر، لم يكن يفعل سوى إعطاء الحقن وإيداع المال في بنك المدينة، كان وحيداً، وعندما تعنينا الوحدة فإننا قادرون على أن نقترف كل الدناءات المناسبة لضمان صحبة، آذان وعيون تلبينا. أتكلم عنهم، عن الآخرين، وليس عني.

كانوا يأتون ويتبادلون الحديث، وشيئاً فشيئاً بدأت برؤيته، طويل، منكمش، مع اتساع مفاجئ لهيكله العظمي، في الكتفين، بطئ لكن دون حرص، موازناً بين الشكلين الخاصين للخجل والكبرياء، متناولاً طعامه منزوياً في صالة الفندق، دائماً بجانب نافذة، دائماً متوجهاً برأسه نحو اللامبالاة، نحو الجبل والساعات، هارباً من حالته، ومن الوجوه والمحادثات.

بدأت أراه في الصالة على الطاولات الملتفة للبار، ناظراً لكتاب أو صحيفة، شاعراً بالملل وصاغراً قابلاً، معتقداً، أنه يكفي أن يستعرض

Twitter: @ketab_n

ذاته وبدون ذاكرة، لساعتين أو أربع ساعات في اليوم أمام نزلاء الفندق، ليبقى مُستثنى، منفصلاً عنهم وعن قضاياهم. وهكذا، مسترخ في مقعد القش، بالساقين ممدتين، فارضاً على شفتيه الحفاظ على ابتسامة يعلوها الود والحنين، غير آبه بالسرعات المختلفة وأطوال خطوات الآخرين، لأصواتهم المتملقة، لرائحة العطور القوية التي كانوا يبدوا أنهم اغتسلوا بها، مقتنعين أن هيجان الروائح كان قادر على المحافظة، لكل منهم، على السر الذي يجمعهم بالآخرين، الذي يجمعهم كما إلى قبيلة.

يجلس بينهم، لساعتين أو أربعة يومياً، متظاهراً بالاعتقاد، أنه حوّل الارتياب إلى عادة وإلى حليف لا لبس فيه، أن كوميديا صارمة من الإهمال كانت كافية لتحافظ عليه متعلقاً بكل ما هو موجود قبل تاريخ التشخيص.

لم أستطع أن أعرف أبداً إذا ما قد بتّ أحبه، أحياناً، كان يجذب انتباهي بفكرة أني لن أستطيع فهمه أبداً. هناك في بار الفندق، كان غير معروفاً، مديراً ظهره للميزان المتواضع المنزوي بعكس اتجاه الدرج، أكيد أنه لم يكن هناك حاجة لاستخدامها أبداً، غير مبال بالشائعات والتعليقات التي كان يطلقها الآخرون، وهم يصعدون ليسألوا عن موعد الحقنة. هناك كان، في محيط الفندق قبل وبعد الغذاء - مباشرة قبل وبعد أن يصل إلى المتجر ويسألني دون كلمات عن الرسالة التي ينتظرها

Twitter: @ketab_n

- سائراً حتى يصل إلى النهر، ليقترب من الحصى المدورة البيضاء لقعر النهر والشريط البائس المضيء للماء المجمّد بينها،، ناظراً ومتذكراً الأعمدة الخمسة للجسر، هابطاً إلى الحقل ليدوس مكب قمامة الفندق، محركاً بحذائه الورق المقوّى، الزجاجات، بقايا الخضار، القطن والأوراق الصفراء.

كنت أتابع مشاهدته منتصف كل يوم، وهو يدخل المتجر، ببدلته الرمادية المدنية، القبعة للخلف، مؤدياً لي تحية قصيرة وصمّاء. وعندما كان ينزوي ليتناول جعته، برسائل أو بدونها في جيبه، كنت أصر على تفحص عينيه، في تقييم نوعية وقوة الاستياء التي يمكنني اكتشافها في العمق: استياء مدجّن، معتاد على الصبر، مضاف بحزم. كان هو يميل برأسه ليلغيني، ناظراً الحقول وممرات الجبل، ذروة البياض للبيوت تحت الشمس العمودية.

حضر الممرض في مطلع تشرين الثاني ذات ليلة إلى المتجر وجلس ليتحداني بابتسامته. سكبت له النبيذ وأطباق الجبن والسلامي، ولم أعطه بالاً، فأدرت له ظهري وأنا أصفّر.

- أظن أنك لا تعرف؟

بدأ أخيراً الممرض بالكلام. إنه شيء لا يصدق. هل تذكر ذلك الشخص؟ يبدو أنه سيغادر الفندق، يبدو أنه أحس بالتعب من تبادل

Twitter: @ketab_n

الحديث، أو أنه لم يعد هنالك ما يقوله لأنه تقاطع ذات مساء في الشرفة مع الشقراوات غوميزا وكان عليه أن يحييهما، عن طريق الخطأ، بالطبع، لأنه حريص على أن لا يصيب أبداً وأن يضع دائماً المساءات في النهار أو النهار في المساء. حتى يعلم الجميع بأنه منشغل، دون أن يصحح ذلك، لأنه يفعل ذلك عن قصد، حتى يصبح معروفاً أنه لا يفكر لماذا يحيا ولا يعرف في أية لحظة يعيش.

كان يقاطع نفسه أحياناً ليمضع الخليط من السلامي والجبن، وكان أحياناً يمضغ وهو يتكلم، تخيل لي أن حقد المرض، بالكاد دافئ و عنيد، لم يكن ليولد من سلبية الآخر تجاه الحقن التي اقترحها عليه غونز، والتي كان لها في الأصل إذلال غير مفهوم، جرم سري.

- سيفادر الفندق. يبدو أن اللعاب قد نفذ منه، لأنه تكلم ذات مرة عن المطر مع نادل المطعم أو سأل الخادمة عن ساعة وجود الماء الساخن. لم يغادر بعد، لم يستجمع قواه ليطلب الفاتورة أو لإعطاء شروحات، هذا إذا ما كان هناك ثمة من يهمه سماعها. لم يعد هناك من يكلمه، أو إذا ما كلمه أحد فسيكون بداعي المزاح، لتخمين إذا ما كان سيقول نعم أو لا برأسه، بذلك الوجه الجامد، وبعيون سمكة نائمة.

ضحكت قليلاً، لأرضيه، لأظهر له أنني أسمعه، تابعت الضرب بالعصا، ولم اسأل أي سؤال.

Twitter: @ketab_n

- حول عيون سمكة نائمة - قالت ريبنا، الخادمة الطويلة - اعترف الممرض - لم يقل وداعاً بعد. لكنه ذات قيلولة، بدلاً من أن يذهب للتحري في القمامة، صعد إلى الجبل ليتكلم مع اندرادي واستأجر شاليه البرتغاليات. يبدو أنه لا يعرف ما حصل في الشاليه. إنه لا يتكلم مع أحد، فمن سيحذّره؟

- ليس لهذا أهمية - قلت - فهو مريض في الأصل.

- لا داعي لأن تقوله لي. لا أقصد العدوى. لكن على أية حال، ففي بيت تموت فيه ثلاث شقيقات وابنة عمهن ليصبحوا أربعة.... جميعهن وهن في الخامسة والعشرين. فهو أمر يثير الريبة.

- لم تكن ابنة عمهن - قلت متثائباً -. بالإضافة، إلى أنه لن يعود أبداً ليكون ذو خمسة وعشرين عاماً.

أخذ الممرض بالضحك كما ولو أني كنت أسخر من أحد. بينما كنت أرتب الستائر، تخيلت الرجل وهو يصعد الجبل ليقطع على اندرادي قيلولته، دافعاً جسده الطويل والكسول - كمخالف، كانتهاك حرمة تقريباً - في ظل (البزنس) للتنزيلات والعمولات، مظهراً اهتمامه بالعروض، أسعار وتفاصيل البناء بصوت منخفض وغير مرن، تاركاً المجال لأن يُغش، ممرراً عيناه عبر الخريطة الكبيرة للجبل المعلقة في الحائط، والتي تخترقها، في محاولة عبثية لوضع نظام ما، خطوط

Twitter: @ketab_n

عريضة بيضاء تتعلق بشوارع وجادات لا يمر بها أحد، متعرجة، تتخللها خطوط زرقاء وحمراء منبئة بجولات الحافلات حيث لم يكن هناك داع لاهتراء دواليبها متسلقة وهابطة التسميات الرائعة. كان الرجل ينظر لرؤوس الألوان، للدبابيس التي وضعها اندرادي في الخريطة مشيراً إلى المواقع التقريبية للبيوت التي كُلف بتأجيرها أو بيعها، محاولاً اكتشاف بصيص إنذار ما، لوعد ما، مرتشح عبر الغبار الذي خيّم عليها.

واندرادي، الذي تفوح منه رائحة العرق، مبتسماً، عارضاً عليه بحذر في البدء، متحمساً ملحاً فيما بعد، الغرف الأربعة لمنزل البرتغاليات، بأثاثهم الملفوف بقماش فاتح، باللمسات الأنثوية الغابرة، قامت بها فتيات لتعطين رفقة للمكان.

كان من الغريب أن يكون الرجل قد قرر استئجار بيت الفيريرا والغريب أنه لم يكن يحوي ثلاث غرف تزيد عن حاجته ولا أنه كان مضطراً من الصالون لمشاهدة نفس المنظر تقريباً الذي كان يطوفه في المساءات: الجسر فوق الحجارة للنهر الجاف، ومكب نفايات الفندق.

- هل كنت ستقول أن الرجل لديه المال لاستئجار هذا المنزل؟

سأل الممرض قبل أن يذهب إلى النوم - . دون أن يذكر أنه لا بد أن اندرادي قد استغل الموقف.

لكنه سرعان ما أقنعنا أن بإمكانه إنفاق المزيد من المال، لأنه

Twitter: @ketab_n

مضت أسابيع بعد ذلك ما زال يقيم في الفندق، ذاهباً كل ظهيرة، من الغذاء حتى المساء، ليختلي بنفسه في بيت الجبل أو للاسترخاء في الشرفة، موجهاً رأسه تجاه البقعة التي يقطعها النهر والجسر المنخفض.

- من قال لك أنه ليس عاشقاً لواحدة من البرتغاليات؟

علق الممرض -. ربما يكون عاشقاً للثانية، والتي كانت ثرثارة كثيراً مثله. اشترى في ذلك اليوم نصف دزينة من قوارير الشراب من الفندق وحملها معه إلى الشاليه. الآن نعرف لماذا ينعزل. إضافة إلى أنه كان حرياً به أن يشتريها منك.

إلى أن وصل ذات يوم إلى المتجر قبل أن تقوم الحافلة بتوزيع البريد ولم يقترب من أوراق التقويم أو يطلب جعة. اتكأ على الشجرة، في الخارج، ويديه في جيبي بنطاله، بقدمين مفتوحتين، وللمرة الأولى بدون ربطة عنق أو قبعة.

هبطت المرأة من الحافلة، بظهرها، بطيئة، عريضة، لكنها لم تكن بدينة، مادة ساقاً قوية وهادئة إلى أن وطأت الأرض، تعانقا بينما هو تنحى جانباً ليساعد الحارس الذي كان يحرك الحقائب في سقف الحافلة. ابتسما وعادا للقبلات، دخلا المتجر وبما أنها لم تكن ترغب بالجلوس، طلبا مرطبات في القسم الواضح من المنضدة، باحثين عن تلاقي العين بالعين. كان الرجل يتكلم بدوار مستمر، مداعباً في

Twitter: @ketab_n

الوقفات القصيرة ساعد المرأة، مطلقاً ثرثرات، معتقداً أن غزارة الكلمات ستعدّل من شكل وجهه الهزيل، وأنه يمكن إنقاذ شيء ما، طالما هي لا تقوم بتوجيه الأسئلة المتوقعة.

تحت النظارات الشمسية، كان فم المرأة يفتح بسهولة، في كل جملة يتلفظ بها الرجل تقريباً، مكررة دائماً نفس الطريقة في الفرح. ابتسم لي مرتين بينما كنت أخدمهما، شاكراً خدمات لم أقم بها، مبالغاً في قيمة الصداقة بيننا أو تعاطفي معه.

- لا - قال هو. ليس ضرورياً، ليس هناك ميزة في هذا. ليس من أجل المال، رغم أني أفضل ألاّ استخدم هذا المال. لدي في الفندق أيضاً طبيب، وكل ما هو ضروري.

أصرت هي لفترة من الوقت، هامسة دون اقتناع، كان يبدو أنها واثقة من قدرتها على إلغاء أي مشروع للرجل، وبالنسبة لها بدا مستحيلاً التغلب على ابتعاداته السلبية، وانفصاله. وقف جانباً عن المنضدة وذهب تجاه ظل الشجرة ليقنع ليفا أن تقلهما معها في سيارتها إلى الفندق، كانت ليفا تنتظر حافلة المشفى لاصطحاب امرأتين كانتا ذاهبتين إلى المدينة. انتهى الأمر بأن قالت نعم، ربما عرض الرجل مالاً أكثر من ثمن الرحلة، ربما فكر أن النساء كن مضطرات أن لا يتحركا من المتجر حتى يعود هو.

Twitter: @ketab_n

- كيف تراه؟ - سألت.

فكرت أنه لربما كان قد كلمها عني في رسائله، لا بد أنه كذب بشأن محادثات وصداقة ما بيننا.

كان لديها الوقت لتقول لي، بصوت جديد ومبتهج، كما لو أن التقرير سيتحسن شيئاً ما.

- لا بد أنك رأيت الاسم في الصحف، ربما تتذكر. لقد كان أفضل لاعب كرة سلة، كما يقول الجميع، لاعب دولي. لعب ضد الأمريكيين، وذهب إلى تشيلي مع الفريق الوطني، في العام الأخير.

العام الأخير الذي على ما يبدو أنه العام الذي انتبهوا إلى أن الوضع قد بدأ يسوء. دون فرح، إنما مُثاراً، استطعت أن أفسر لنفسي سبب عرض الكتفين، والإهانة المفرطة التي يطوي كتفيه بها، ذلك الحقد الدفين الذي يحمله في عينيه والذي كان قد وُلد، ليس فقط بسبب فقدانه لصحته، لنوع من الحياة، لامرأة، وإنما، قبل كل شيء، بسبب فقدانه للقناعة، بحقه في الكبرياء. لقد عاش معتمداً على جسده، لقد كان جسده بشكل ما، كل شيء بالنسبة له.

قبلتُ بشكل جديد من الشفقة، فكنت أعتقد أنه أضعف من هذا، أكثر حرماناً، وأصغر سناً. بدأت برؤيته في صور مكبرة في مجلة «المصور»، بسروال قصير وقميص أبيض بحروف أولى، محاطاً برجال

Twitter: @ketab_n

آخرين يلبسون مثله، مبتسماً أو حارفاً عينيه، بنفس الوقت، مع التعب والتواضع الذي يليق بالآلهة والأبطال. شاب بين شبّان، برأس لامع وشعر مسرّح للتو، بل مظهراً في الإصدارات الكبيرة من المجلة، اللمعان المتوهج الصحي للجلد، البريق الدهني بسبب الطاقة، رجولي، وطاقة لا تنضب. رأيته يجلس القرفصاء، برأسه الذي يميل ليعرض ثلاثة أرباع جانبه على ضوء المصباح، والأصابع الخمس ليد كأنها تبدو متكئة على كرة ما أو لحمايتها، وأيضاً في غرفة مظلمة، متفحصاً لوحده دون أن يستوعب، الصفائح المرنة للصورة الشعاعية الأولى، محاطاً بالجوائز والذكريات، والكوؤس، والأعلام، صور فوتوغرافية لصفوف أمامية في ولائم. كان بإمكاني رؤيته راكضاً، قافزاً ومنحنياً، تفوح منه رائحة العرق، ساذج وسعيد، في سلات للكرة ابيضت نتيجة الأضواء العنيفة، بالتأكيد إنه ذلك الجسد الطويل ونصف العاري، مقتنعاً بخلود كل وقت من عشرين دقيقة وأن الاسم الذي كانت تهتف له الحشود معبرة عن التقدير وملحة على ترداده، كان يظن، أنها تذكر شيء حقيقي ودائم.

طالما بقيت المرأة ذات النظارة الشمسية، انقطعت ظروف الرسائل المكتوبة بخط اليد أو بالورق الخشبي. نزلا في الفندق، ولم يعد الرجل إلى مكب النفايات ولا إلى بيت البرتغاليات، كانا يتمشيان جنباً إلى جنب ممسكين بيدي بعضهما، كانا يستأجران خيول وعربات،

Twitter: @ketab_n

يصعدان ويهبطان الجبل، يبتسمان بتناوب متشددين، حول خلفيات رائعة، ليلتقطا الصور بكاميرا «اللايكا» التي كانت أحضرتها معلقة بكتفها.

- كما ولو كان شهر عسل - قال الممرض، مسترضياً - ما كان ينقص الرجل هو المرأة، من الواضح أنه لا يحتمل العيش دون امرأة. إنه الآن رجل آخر، لقد دعواني لتناول كأس معهما في الفندق وأخذ الرجل بطرح أسئلة حول كل شيء في القرية. وأن المرض لا يقلقه، لا يمكنهما البقاء دون أن يلمسا يدي بعضهما، ويقبلا بعضهما رغم وجود الناس. لو كان بإمكانها البقاء (ستذهب في نهاية الأسبوع)، عندها لكنت راهنت على أي شيء أن الرجل سيشفى. ألا تراهما عندما يأتيان في الظهيرة لتناول المقبلات؟

لقد كان الممرض محقاً ولم يكن بإمكاني أن أقول شيء ضده، ومع ذلك، لم استطع أن أصدق ولا كنت أعرف حتى أي نوع من الاعتقادات كان على المحك، أي حيلة سأضيف أنا إلى ما رأيته، يا للأمل السخيف، الكريه الذي منعني من أن أتأثر، قبول السعادة التي كانا يشيدانها يومياً أمام عيناي، بإصرار الأيدي بين الكؤوس، بالأصوات التي كانت تطرح وتعلق على مشاريع.

عندما غادرت هي، عاد الرجل ليزور المنزل الذي كان قد

Twitter: @ketab_n

استأجره، أحياناً منذ الصباح، حاملاً بحزمة من الأشياء لتناول الغذاء، ولا يظهر حتى المساء، منزوياً مقابل طاولته في الفندق، شارداً ومقتضباً، مستعجلاً على بناء جدران العزلة التي كان قد دمرها قبل أربعة عشر يوماً،

مبيداً كل جذع للخصوصية بنظرته الرمادية، الثكلى بهدوء. لتعود الرسائل أيضاً، بعد يومين من مغادرة المرأة، متقابلة الظروف بالأحرف الواسعة المخلصة والمكتوبة على الآلة الكاتبة بحبر بال.

وهكذا بقينا، الرجل وأنا، فعلياً مجهول كُلّ للآخر مثل البداية، وبعد كل ظهيرة، كان يضطجع في زاوية المنضدة ليكرر جلسته الجانبية أمام زجاجة الجعة - من جديد ببزته الصارمة كابن للمدينة، ربطة العنق والقبعة -، ليتصارع معي في النزاع الاعتيادي غير المعلن أبداً: يقاتل ليجعلني أختفي، ليمحو شاهد الفشل والبؤس الذي كنت أمثله بغيظ، وكنت أصارع من أجل الفوز المشكوك به بإقناعه أن كل هذا هو حقيقة، مرض، انفصال، انتهاء. كان يدخل ناظراً إليَّ، في عيني مباشرة، بتلميح، بابتسامة كانت توفر عليه التحية، وليترك النظر إليَّ على الفور بمجرد استلام الرسائل، كان يضعها في جيب المعطف، متظاهراً بعدم التسرع والتعثر، الرأس والجسد دون حركة، متظاهراً أن لا علاقة لهما بالأصابع الخمسة التي كانت تناور الظروف.

Twitter: @ketab_n

كان يطلب الجعة أحياناً، أحياناً أخرى كان يوجه الشكر ويغادر، عندها نعم كان يصل إلى الضحك فعلاً، وبهذه الابتسامة وبصوت شاكر باحثاً فقط عن تهدئتي، والقول بأنني لست مسؤولاً عما تقوله الرسائل.

- غونز يجد حالته تسوء - ذكر المرض - . بمعنى أنه لا يتحسن. حالة مستقرة. أنت تعرف، أنه أحياناً يسعدنا إذا ما استطعنا الإبقاء على حالة مستقرة. لكن في حالات أخرى، على العكس يضعف الجسم. وكيف سيتحسن؟ أؤكد لك أنه استأجر المنزل فقط ليثمل دون أن يراه أحد . عليه أن يذهب إلى المصحة، لو كنت في مكان غونز لفرضت على الرجل أن يبقى مضطجعاً في المصحة أربعة وعشرين ساعة في اليوم. على غونز أن يخيفه.

إخافته، فكرت أنا، يجب اختراع عالم آخر، كائنات أخرى، مخاطر أخرى. لم يكن الموت كافياً، فنوع الخوف الذي كان يظهره في عينيه وحركات يديه لم يكن بالإمكان زيادته بفكرة الموت ولا تخديره بمشاريع الشفاء.

هكذا كنا، كما في البداية، عندما أخذت القرية تمتلئ بالعشرات من الرجال والنساء، بعباءات ملونة وقبعات، سراويل ركوب ونظارات شمسية داكنة متناثرين في الجبل، الطرقات، الفنادق، الحانات بأماكن الرقص وحتى في المخزن نفسه. لقد كان عاماً جيداً،

Twitter: @ketab_n

كانت نفس الموجة التي كنت قد رأيتها تصل خمس عشرة مرة، كل مرة أكبر، أكثر ضجيجاً، وأكثر إثارة، وكان الرجل يغرق فيها، وتوقف الممرض والخادمات عن إحضار التقارير لي. فقدوا أثره وأنا أيضاً، مشغولاً بالمتجر، وكنت أمنحه الرسائل على غير هدى، دون اكتراث. ولكن ليس تماماً، لأن الصراع المختلق، ما زال في الليالي، عندما كان المتجر يبقى فارغاً أو بمجموعة واحدة فقط من رجال ونساء يكونوا قد لجاؤوا هناك ليتناولوا الكأس الأخير - لكونهم في إجازة، رغم أن صالون المتجر كان قذراً ووسخاً، وأن نبيذ البرميل كان يدهشهم لسوئه وقسوته، لأنهم ما كانوا يجرؤون على الدخول لمكان كهذا في بوينس ايرس -، أنا كنت أكرس نفسي للتفكير به، كنت أمنحه ما يريده، مستغلاً هجوم السائحين ليختبئ مني، كنت أشعر بالمسؤولية لإتمام مصيره، مجبر على القسوة المطلوبة لمنع النبوءة من أن تتعدل، واثقاً من أنه كان يكفيني تذكره وتذكر لعنتي التلقائية، حتى يبقى مستمراً في الاقتراب من الكارثة.

توقف قبل وقت قصير من نهاية السنة عن استخدام الحافلة حاملاً رسائله إلى المدينة، كان يذهب سيراً على الأقدام من الفندق وكنت أراه يمر بلباسه، دون إدراك للمكان أو الوقت، مرهقاً وشارداً، بعيداً تماماً عنا كما لو أنه لم يصل إلى القرية أبداً، بذراع جامدة،

Twitter: @ketab_n

مستقلاً عن حركة السير، واليد غارقة في جيب المعطف حيث كنت أعرف أن هناك الرسالة التي كتبها للتو، ضاغطاً الرسالة بتوجس وحاجة للثقة، كما لو كان مستحيلاً التكهن بالشكل، الألم وعواقب جراحاته.

لقد كانت فكرة المرض، رغم أنها ليست كلها منه، وأفكر أيضاً، أنه لم يقتنع بها وإنما اقترحها على سبيل السخرية، ليس مني ولا من المتجر، وإنما من الفكرة نفسها. كنا نشاهد مرور السيارات، تدخل وتخرج، برّاقة وشامخة، من غبار الأرض الذي كان يرتفع في الطرقات، عندما أخذت الخادمة بالضحك ووضعت في المنضدة كأس اليانسون. كانت ريينا وقالت أنها تفكر بالزواج من الممرض.

- إذا ما كانت هذه السيارة السوداء ذاهبة إلى الفندق - قالت ريينا ستعود سريعاً. هل رأيتها تنعطف؟ ليس لدينا أي شاغر منذ الاثنين. علماً أننا نضع أسرّة في كل مكان. لن يكون لدينا مكان حتى شباط.

الآن صارت جادة وفخورة، أنهت كأسها رافعة رأسها وضامة فمها بزهو، ناظرة إلى عيني طالبة الإعجاب والحسد.

- يحدث نفس الشيء مع الرويال - قال الممرض -. لا أدري أين سيضعون كل هؤلاء الناس. وما زالوا يحضرون. يكفي أن أقول أن لدى

Twitter: @ketab_n

الرويال كل الطاولات محجوزة لعيد الميلاد ورأس السنة. لو كنت مكانك لكنت نظفت المكان، ووضعت راديو وأقمت حفلة رقص كبيرة - عادت الخادمة ريبنا للضحك، لكن هذه المرة، كانت فقط من الإثارة، ضحكة قصيرة خلف المنديل الذي كانت تمسح به العرق واليانسون.

- لم لا؟ - قال عندها الممرض، واضعاً وجهاً لرجل صادق - قالها على محمل الجد. هاتين الليلتين سيكون هناك الكثير من الناس حيث لا نجد مكاناً للرقص والشراب للاحتفال. أنت تعرف كيف يحتفلون. كان هو يعرف، لأنني كنت أنا من أخبره! جميعهم، الأصحاء والآخرون، الذين كانوا يمرون بالقرية والذين ما زالوا يقنعون أنفسهم بأنهم هنا لفترة، كل من لم يعد يتفاجأ بالاحتفالات مثل حمام في العراء، كل الذين كانوا يتفاجئون بالحفلات كما بهطول مطر غزير في العراء، الذين كانوا يقطنون الفندق والبيوت الحمراء والبيضاء الرتيبة، جميعهم تبنوا منذ مساءي تلك الليلتين شكلاً من الجنون الخاص والمقبول. ودائماً كان التاريخ يأتيهم كمفاجأة، حتى ولو كانوا قد عملوا مخططات وحسابات، حتى ولو كانوا قد عدوا الأيام، حتى ولو كانوا يتوقعون ما كانوا سيشعرون به وقاوموا لتلافي هذا الشعور أو ليتركوا أنفسهم للرغبة أن يستبقوها وأن يذهبوا بتقويتها ليؤكدوا قوة أكبر من القسوة.. كان لديهم عندها بعض الحيوانات، كلاباً أو خيولاً، خالطين قبولاً

Twitter: @ketab_n

مطيعاً لمصيرهم وظروفهم بتمردات وخيفات، بمحاولات كاذبة وبرية للهروب. أنا كنت أعرف أن في هاتين الليلتين، سيظهر للنادلين ولرفقاء الطاولة، لكل من يستطيع رؤيته، لسماء الصيف البعيدة فوق الجبال، للمرايا المطموسة في دورات المياه، ويظهر لهم كما لو كانوا يعتقدون بأدلة أبدية، عيونهم المتحمسة والمتوقعة، مغطين بالرقابة وبلمعان وقاس. كنت أعرف أنهم سيكونون متأوهين دون صوت في ظل الموسيقى، الصرخات، موجهين آذانهم تجاه نداءات مفترضة لرجال أو نساء، لأرواح مفترضة ناعمة ترتفع في الجانب الآخر من الغابة، في بوينس ايرس، أو روساريو، في أي اسم أو مسافة.

كنت أحرك رأسي رافعاً كتفيَّ بين الممرض والخادمة، متظاهراً أنني أحاول التذكر وبأنه لم يكن هناك في الذاكرة ما يكفي لإقناعي.

- أنت تعرف أنهم يتصرفون كالمجانين - قال الممرض، متحولاً إلى الخادمة ليجعل منها حليفة له - إنهم يريدون مكاناً للرقص وتناول بعض الزجاجات. أي حفرة، شريطة ألا تكون المكان الذي يعيشون فيه.

في تلك اللحظة، لم أعد بحاجة لنصح الممرض، فقد اتخذت قراراً وكانت كل التفاصيل قد حُلّت بالنسبة لي.

- إنه كذلك حقاً - قالت ريينا، بينما كانت تفتح علبة المكياج لتزين نفسها.

Twitter: @ketab_n

- إذا ما وضعت المزيد من الطاولات وجهزت المكان للرقص قليلاً... أما الموسيقى فلديك الراديو.

أنا كنت أفكر أبعد من ذلك بكثير، فقد كنت أفكر في الشجرة، من أين يمكن الحصول عليها وكيف أزينها. وهكذا استطعت النظر إلى الممرض بود، متناسياً الشك باقتراحه المطروح بالرقص ليسخر مني ومن المتجر: استطعت أن أنظر إليه بابتسامة، متذكراً أنه قال «أي مكان يصلح ما عدا ذلك الذي يعيشون به»، شعرت أني قادر على التسامح وأنه كان أكثر ذكاء من المطلوب منه (كسر القوارير، إعطاء الحقن وأخذ المال إلى البنك كل يوم سبت).

عادت هي لتضحك، وعلقت بحماس عن ليلتي الرقص في المتجر، قال الممرض نكتة كانت تتضمن فكرة عمل بدون التزام.. من جديد، جدي ومتواضع، كرر:

- بحق أقولها لك. يمكن أن تمتلئ بالمال.

وهكذا ظهرت طاولات وأخذت تتكدس في صالون المتجر، بعضها مقترض، بعضها مزودة بجوارير وأدراج، غطيتها جميعها بورق ملون، وفي اليوم الرابع والعشرين، ورغم أنها أمطرت طوال بعد الظهر وسقطت بعدها بعض الزخات، إلا أن الصالون أخذ بالامتلاء وكل النساء، كانت تتفوه بجملة من التعاطف أو تمنح لفتة مليئة بالحيوية

Twitter: @ketab_n

عند اكتشاف شجرة الأرز محملة بانعكاسات فوق المنضدة. على الرغم من المطر، إلاَّ أن الراديو اشتغل طول الليل، رقصوا محصورين قليلاً، غير مرتاحين، مظهرين أن هذا يعجبهم، كما كان يعجبهم الشراب من الفناجين بأطراف متكسرة، مغلوب على أمرهم بالشراب الموجود والطعام. رقصوا، ضحكوا، غنوا وبدؤوا بالمغادرة تحت المطر، أصدقاء العمر.

أما ليلة الواحد والثلاثين كانت أفضل، فقد كان هناك المزيد من الناس حتى أني اضطررت لأضع المزيد من الطاولات في الخارج. ولكن في منتصف الليلة بدأت أشعر بالتعب، رغم أن الصبي ليفي كان يقوم بمساعدتي. عندما سمع المرض البوق وخرج يتنشق الهواء وعاد ليقول لي مبتسماً، متحمساً وعلى وشك أن يربت على ظهري، بأن الحافلة وصلت من المدينة مع بعض المسافرين، وهي مليئة بالمجموعات التي أتت للرقص في المتجر، فوضعت وجهاً من المفاجأة والسعادة لكني بدأت أتمنى بكل قواي أن تنتهي الليلة.

ربما كانوا جميعهم سكارى، لكني على الأقل كنت قد بعت ما فيه الكفاية. كانوا يغنون ويسألون عن الساعة، أخذت امرأة من طاولة الإنجليز بريتون، وفي إحدى الزاويا قامت بإلقاء الشرائط الملونة، في البداية الطاولات القريبة، بعد ذلك لتتعلق بسلك الإكليل والزهور

Twitter: @ketab_n

الورقية التي كانت تعبر الصالون من أعلى شجرة عيد الميلاد حتى أحد قضبان النافذة. كانت رفيعة، شقراء، حزينة، مرتدية ثياباً سوداء، بفستان ضخم، وبعقد من اللؤلؤ، وبدبوس من الذهب فوق القلب، وبابتسامة مضطربة تكشف لها اللثة العليا، بتقلص مرح، مشمئزة عنيفة مما يجعل شفتها ترتفع على الفور ثم تعود ببطء، ابتسامة، كانت ببساطة، تحدث في وجهها، بشكل منتظم، قبل وبعد أن تشرب رشفة من الخليط بقصب السكر مع النبيذ الأبيض الذي كان قد اخترعه الرجل السمين والأحمر الذي كان يترأس الطاولة.

كانت تنحني للخلف فوق مقعد المطبخ، وبلفة الأوراق الملونة فوق الرأس، مراقبة بعناية موقع إكليل الزهور، والتي أصبحت مشوهة وبدت الزهور ذابلة، كانت تنحني فجأة بجسدها تجاه الطاولة شادة الفستان ليكشف صدرها، الاستدارات القصيرة والكئيبة، والأوراق الملونة كانت تُصفّر عند إطلاقها. لم تخطئ أبداً، رغم أنها كانت بعيدة، لهذا اضطررنا أنا والصبي ليفي لدفع الصواني بستارة الأوراق الملونة وكان الراقصون يلمسونها بوجوههم، يلتفتون ليلتفوا بها محاولين أن لا يقطعوها، جاعلين دوراتهم بطيئة جداً، خادعين إيقاع الموسيقى.

انتهينا من ضجة منتصف الليل وأستطيع فقط تذكر الصداع في رأسي، دقاته غير المنتظمة والمستمرة، ومحاطاً بها، الحضور واقفين

Twitter: @ketab_n

يرفعون كؤوسهم وأكوابهم، يشربون الأنخاب ويحضنون بعضهم، محتارين مع إطلاق النار الذي ثمة من بدأه في الجبل ووصل حتى الرويال، حتى البيوت فوق الطريق، المختلطة بالطوب، مع الصوت الصلف لمكبر الصوت في الراديو الذي رفع صوته حتى الصراخ. الإنجليزية الرفيعة، طافية على مقعدها، مسنودة من رجلين، وتأكل عنبات بيضاء من عنقود كنت قد بعتهُ لها.

لا أستطيع القول إذا ما كنت رأيتها قبلاً أو إذا ما اكتشفتها في تلك اللحظة، متكئة على إطار الباب: قطعة من الفستان، حذاء، مقطع من الحقيبة متداخلين في ضوء المصابيح. ربما لم أرها في اللحظة التي بدأت فيها السنة، ولكنني فقط تخيلت، لا أذكر، حضورها الثابت متموضعاً بدقة بين الغبطة والليل.

لكني أذكرها بالتأكيد، في وقت لاحق، عندما قررت المجموعة الأولى أن تغادر، ليكتشف البقية أنه لم يعد ممكناً الاستمرار هناك، في المتجر، بينما كانت الصرخات والضحكات تصدح في الخارج، الضربات على أبواب السيارات، والموتورات تتقدم في المرتفع، باتجاه الفندق القديم أو قرية البينوس. عندها نعم أتذكرها، ليس بالضبط لها، ليس ساقها وحقيبتها، وإنما أتذكر الرجال المترنحين الذين كانوا يخرجون، ويعودون الواحد تلو الآخر، لا يتركونها وشأنها وينتقل الحديث معها من

Twitter: @ketab_n

شخص لآخر، كما ولو كان قد تلاشى جنس النساء اللواتي كن يرافقنهم، لطرح الأسئلة ولدعوات بنوايا غير صادقة.

ثم هناك اللحظة التي توقفت، خلف المنضدة، لأنظر إليها. فقط بقي الانجليزيون، الرجلين يدخنان غليونهما، النساء الثلاثة يغنون في جوقة، دون رغبة، أغاني حلوة وغير مفهمومة، أكثرهن نحولة ضاغطة على العلبة الأخيرة للأوراق الملونة. الآن هي كانت داخل المتجر، جالسة بالقرب من الباب، الحقيبة بين الحذائين، قبعة صغيرة على التنورة، والرأس مرتفع تتحدث مع الصبي ليفي الذي كان يحتضر من النعاس. كان لديها طقم رمادي، قفازان أبيضان، محفظة غامقة معلقة على الكتف، أقول ذلك لأنتهي على الفور بكل ما يتعلق بها ولم يكن بوجهها المدور، المتوهج من الحرارة، متقلبة خلف الأوراق الملونة الواقعة من الإكليل وكان قد بدأ هواء الفجر بالتحرك.

قام الصبي ليفي بتركها ليعتني بالإنجليز ثم أتى ليقول لي أنهم يطلبون الحساب، أجريت الحساب ومررت أمامها دون النظر إليها، متجنباً أن لا تتأهب، لكي أتابع تأملها من خلف المنضدة. ولكن عندما انتهيت من مرافقة الإنجليز إلى السيارة، ومن شكرهم على حضورهم، ومن رفض المديح لحفلتي، والنقاش مع الأكبر سناً إذا ما كان الوقت مناسب ما بعد الظهر لصيد السمك في السد أم لا، رأيت عندها

Twitter: @ketab_n

الممرض جالساً بالقرب منها . أدركت أنه استغل موقف الفتاة، الواقفة باحثة عن عيني الصبي ليفي لتطلب منه شيئاً، وهكذا كان على الممرض أن يلبيها، طوال الوقت، بكلمات لم تكن موجهة له، بل كانت موجهة إلى آخر، في الحقيقة إلى أي أحد . لكن هذا لم يثبط من عزيمتها : تابعت بسؤاله، مومئاً بحماس كل مرة كانت هي تهمس بشيء، فاهماً هذا وكل شيء، ما كانت تقوله الشابة وما كان خلف الكلمات، بماضيها ومستقبلها .

قلت للصبي ليفي أن يذهب ليغلق ولينظف قليلاً .

- هل طلبت الآنسة منك شيئاً؟

- لا - قال، مرمشاً عينيه، تاركا أن يغزوه النعاس والتعب، ووجهه مليء بالنمش.

- كل ما هنالك أنها تقول بأنه كان هناك من يجب أن ينتظرها هنا، حيث أرسلت برقية أن القطار سيصل متأخراً .

- من كان يجب أن ينتظرها؟ - سألت. فكرت بأنها ما زالت شابة، بأنها ليست مريضة، بأنه كان هناك ثلاث أو أربع صفات لتعريفها وكانت هذه متناقضة.

- هل تريد أن اسألها؟ - قال الصبي ليفي.

- اتركها . لا بد أن يأتوا للبحث عنها أو سنأخذها لتبيت في

Twitter: @ketab_n

الرويال أو أي مكان. لكن اسألها إذا ما كانت جائعة أو إذا ما كانت تريد شيئاً.

في حين لم أكن أنظر، ذهب الصبي ببطء حتى الطاولة وعاد.

- تريد جعة، ليس هناك ثلج، وليست جائعة.

كنت أحرك الزجاجة في مستودع الثلج حتى تبرد. «إنها شابة كثيراً»، عدت لأفكر، دون أن أفهم المعنى لـ «كثيراً» ولا حتى لأي شيء غير مستحب كان يحررها، وليس لها فقط، وإنما لشبابها. عندما تقومت، كان الممرض قد اتكأ بمرفقيه على المنضدة، مبتسماً ليديه، متحفظاً، متواضعاً ومليئاً بالانتصار.

- هل تعرف؟ - بدأ، بينما كنت أجفف الزجاجة ومتفحصاً لكأسه.

- انتظر - قلت لها، متأكداً من أهمية عدم السماع لها على الفور. ذهبت نحو الطاولة وأعطيتها الزجاجة، شكرتني هي بنفس الوجه الذي رفعته للصبي ليفي الواقف بجانب الممرض. لكن كان الوجه محافظاً بما فيه الكفاية لما كان لديه عندما كانت في الظل، بجانب باب المتجر، وربما بعض بقايا رحلة القطار وفي الحافلة، وأني لم أكن أتخيل ذلك، بأنها كيف كانت لوحدها في الرحلة وفي الحب.

عرفت ذلك عندما سأل الممرض «هل تعرف؟»، أو عرفته قبل

Twitter: @ketab_n

ذلك وانتظرت كي أُضلل لأنها كانت شابة كثيراً... لكن لم يكن لدي أسباب للتفاخر أمام المرض، حتى أنني عندما عدت إلى المنضدة وأنا أتلهى بغطاء الزجاجة، احتملت أن يكرر هو السؤال وأن يتأخر ريثما يوازن الابتسامة التمهيدية. عندما أخفق الصبي ليفي للمرة الثالثة بإغلاق مصراع الباب قلت له أن يذهب لينام، وأنني سأتكفل بإغلاقه، وأنه يمكنه أن يأتي ليساعدني في منتصف النهار في التنظيف وليقبض أجره. كل هذا كان من فوق كتفي المرض، بذراعيه المتقاطعة على المنضدة، بربطة العنق للحفلة، وبقرنفلة بيضاء في العروة، ومن خلال الابتسامة الفظة التي ما زالت تميزه.

- هل تعرف؟ - استمعت إليه أخيراً -. إنه شيء لا يمكن تصديقه. لقد أرسلت الفتاة برقية مخبرة بأنها ستأتي وأن ينتظروها هنا، في موقف المتجر. وصل القطار متأخراً، لأكثر من ساعتين، وذهبوا. لكنهم لم يكونوا بانتظارها. هل تتخيل من؟ واحد من الفندق القديم، وهو أيضاً من الجبل. خمّن من؟ الرجل. هكذا هي المسألة: امرأة في الربيع، أما الشابة فهي للصيف. ولربما يكون الرجل لديه البرقية في الفندق وهو يحتفل في شاليه البرتغاليات ويسكر وحيداً. لأنني ذهبت هذه الليلة مرتين إلى الفندق القديم، وعرفت من العانس ذات الكلب والمحاسب، أن الرجل لم يظهر في أي مكان هذه الليلة. إنه

Twitter: @ketab_n

سكران في الشاليه، أراهنك. وهي تريد أن يرافقها أحد إلى الفندق. بما أن الهاتف موجود في الخلف لم يخطر لها أنه يمكنها الاتصال من هنا. الآن انتبه: وإن لم يكن الرجل هناك؟ أيضاً بإمكانه أن يكون قد استلم البرقية ولا يريد الحضور، إنه قادر على فعل هذا.

- لم تصل أية برقية، دائماً تصل البرقيات بعد يومين.

- حسناً - إصر المرض، لم يمر من هنا، لم يحضروها لك. لكن إذا ما كانت ضرورية، أنت تعرف، أحياناً يستغلون الرحلة ويسلمونها مباشرة.

- لماذا كانت ستكون مستعجلة؟ - سألت بغضب نوعاً ما - لتُبَلِغَ عن حضورها؟ لقد قالت له بأنها أرسلتها مستعجلة؟ ولماذا لم تعرض عليها الهاتف؟

- نعم - قال المرض، بدون صبر ومعتذراً - لكن انتظر.

- قل لها أن تدخل وأن تتصل بالفندق - قلت له، بفضول، مهدئاً من روعي - لن تصل البرقية في ثلاثة أيام، ولربما من الأفضل أن نتصل نحن.

- انتظر، رجاءً - رفع يداً وابتسم مجدداً - لنتصل على الفور بطبيعة الحال، ويمكنني الحصول على سيارة في الرويال وأخذها إلى هناك وإذا لم يكن الرجل في الفندق سنأخذها إلى الشاليه. لكن قل لي

Twitter: @ketab_n

الآن، بجد: هل هي مريضة؟ هل ستشفى؟ رئتين؟ كان سكراناً، محافظاً على تهيجه، متثاقل العينين بتعبير حاد، ذكي - أو أنه خطر له بأنها فقط تأتي، بعد تلك ذات النظارة الشمسية، لتكون معه حتى لا يمل؟ قل لي. يبدو أنه استأجر الشاليه لهذه الشابة. ألا يبدو لك أنها شابة كثيراً؟ - لقد كان ثملاً أكثر مما كنت أعتقد، ساخراً، أو ربما وقحاً، لكني شعرت أن الأشد من ذلك كله، كان عدم هدوئه، ارتباكه، وكان قد اختارني أنا ليثير فيّ الكره نحو مجموعة أشياء.

- هيا لنتصل - قلت لها، لامساً ذراعها.

الآن كانت واقفة أمام باب المتجر، ناظرة نحو الخارج، بساقين قويتين وبيدين مغطاتين دائماً بالقفازات، بيضاوين، متحدتين حول وركها، كما لو امتلكت الغباء المناسب لتكون بانتظار أن تصل البرقية في أية لحظة إلى الفندق القديم فيجبر ذلك الرجل على النزول والبحث عنها. ذهبتُ باتجاهها وكلمتها فأجابت هي متلافية النظر إليّ، بوجهها المتجه نحو الظلام، والأضواء المنخفضة في الجبل. لم يبدو لها مناسباً الاتصال بالفندق في هذه الساعة، عرضت أن آخذها في السيارة إلى هناك أو مرافقتها سيراً على الأقدام أو أن ندلها إلى الطريق. أغلقت المتجر نصف غلقة بينما كان الممرض يعبر نحو الرويال. لتتوقف أمامنا سيارة (فوي توريتي) حمراء ورن الهاتف وذهب هو ليرد، اتخذت القرار

Twitter: @ketab_n

بعدم التفكير، قلقاً بإيجاد الأغراض التي كانت تتبع للشابة وأن لا تقع منها وهي معها. عندما اقترب الممرض منا وقال لي - لا تنتظروني، اذهبا لوحدكما فقط - فَعَلَيَّ أن أعود إلى الرويال لأعطي حقنة للشقراء لاماس، لأنها أصبحت في حال أسوأ، وأنه لم يعد يعرفها، علمت على الفور أن الظروف البنية المكتوبة على الماكينة كانت منها وبأن فرحها العارم الظاهر على وجهها كان مسبوقاً، مراراً وتكراراً، باحباطات دقيقة تابعة للريبة اللذيذة الخاصة بشخص لاعب كرة السلة السابق.

كنت أعرف هذا، وأشياء أكثر، والنهاية الحتمية للقصة عندما وضعت لها الحقيبة فوق التنورة وانطلقتُ بالسيارة في طريق الفندق. لم أحاول النظر إليها خلال الرحلة، بالعينين المنصبتين في الضوء الذي كان يتراوح بمرونة في الطريق الرملي، لم أكن بحاجة للنظر إلى وجهها، لتقنعني أن الوجه سيكون، حتى الموت في أيام مضيئة وممتلئة في ليال مشابهة للتي عبرناها، مواجهين للاقتراب الواثق والمزهو للرجال، بالأنف الصغير الذي يظهر، تقريباً من أي موضع في الرأس، ثقباه المنعطفان، البريئان، بالشفة السفلى السميكة بإفراط، بالعيون المسطحة دون تحدب، كما رسوم بسيطة لعينين مخطوطتين بقلم رصاص حالك في ورق حالك بلون أكثر نعومة. ولكن لم يكن ذلك مواجهة للرجال وحسب،

Twitter: @ketab_n

إنما بالطبع، إلى من كانوا سيصلون بعد هذا الذي كنا نقترب منه، والذين بالتأكيد ستجعل منهم سعيدين، دون أن تكذب عليهم، دون أن تستنهض من لطفها أو تفهمها وأن ينفصلوا عنها، بما أنه محكوم عليهم دائماً أن يلتبس عندهم الحب مع ذكرى الوجه الهادئ، مع تلميحات ابتسامة ظاهرة دون أن يكون لها سبب ناشئ في فكرها أو في قلبها تجاههم، الابتسامة التي تشكلت لتعبّر عن الاستمتاع العضوي لأن تكون حية، متصادفة مع الحياة. ليس فقط متواجهة مع الرجال، الوجه المدور دون عطر والذي لم يحاول مقاومة اهتزازات السيارة، حيث كانت تتركه يتوازن راضية، كما لو كانت معتادة على القبول، لأن الرجال يمكنهم أن يفيدوها فقط كرموز، كنقاط استناد لتنظيم محدد اصطناعي وخدماتي للحياة.

لكن الوجه كان مصمماً لمواجهة ما يمثله ويميزه الرجال، محولين على الفور كل شيء إلى ذاكرة، ولتجربة بعيدة. فكرت في الوجه المتأثر، المتأهب، متظاهراً، بينما كانت هي تباعد الركب لكل حب نهائي ولتلد، فكرت في التعبير الخفي لعينيها المسطحتين أمام الهرم والاحتضار.

- هل تعرفه حضرتك؟ - سَأَلَتْ، كان مرفقاها فوق الحقيبة وكانت تدير القبعة.

- إنه يأتي إلى المتجر.

Twitter: @ketab_n

- أعلم. كيف هو؟

- سيكون من الأفضل أن تسألي الطبيب. لكنه سيتماثل للشفاء، ستعلمين بذلك خلال بعض دقائق.

- أعلم - عادت لتقول.

انعطفتُ يميناً ودخلنا في حديقة الفندق القديم. لم تتركني أحمل لها الحقيبة، خطت قليلاً إلى الخلف، مطولة من خطواتها، الوجه متجه نحو النجوم التي كانت قد بدأت بالتلاشي. تكلمتُ مع المناوب وانتظرنا في الصالة واقفين ومنفصلين بصمت، ضغط المناوب زر الهاتف، بينما هي كانت تدير رأسها بصبر وقلق، ملمة لباقي حياتها، بالمسافات، الشقة، الجدران، الأثاث لمكان كان الرجل قد عبره بشكل يومي.

عندما ظهر على الدرج، نحيلاً، مثقلاً من الأرق، مرتدياً قميصاً، بميلان شديد نحو السخرية، مستبقاً مشاعر يأسه درجة درجة، قبل أن يرى الشابة، قبل البحث عنها. أومأت بتحيته واتجهت نحو الباب. كانت تبتسم صاعدة تجاه البطء المفرط للرجل ولم يلتفت عندما قال لي شكراً، مرتين، بصوت عال. من الخارج، من خلال ستارة الباب الزجاجي، رأيت أن الرجل توقف، متكئاً على الدرج، منكمشاً، ممارساً بأسلوب طفولي، للحظة، ريبته القديمة المحمية. بقيتُ هناك حتى رأيتهما على الدرج متعانقين وبلا حراك.

Twitter: @ketab_n

لن يكون جيداً لأحد، لا لهم ولا لي، فكرت، قررت عندما عدت في السيارة، كان مدير الرويال يحرك الطاولات يساعده في هذا أحد العمال، جلست لأتبادل الحديث وأشرب شيئاً.

- لو كان كل يوم مثل آخر يوم في العام لكفاني العمل لعام واحد وما كنت لأعمل المزيد - قال المدير، بسرعة، مُظهِراً أنه قالها العديد من المرات، إنه سمين، أصلع، وردي، حزين، شاب - يبدو أن الشقراء لاماس لن تعيش لما هو أكثر من الليلة، فالممرض والطبيبين معها: مجرد بداية السنة.

هناك من كانت نافذته مفتوحة في الطابق الأول للفندق، كانوا يرقصون، كانوا يضحكون وكانت الأصوات تنخفض بحدة كنبرة الوداع، بثقة قاطعة، كانوا يرقصون أمام النافذة، والألبوم كان «الحياة بلون وردي»، على الأكورديون.

- نحن بحاجة إلى المزيد من الدعاية وتحكمات أقل - قال المدير. لم يكن يعنيه الأمر، كان يتلصص، كما دائماً، على وجهي وحركاتي، عصبي وممتناً - جعة أخرى، من فضلك؟ الصناعة الفندقية هي خاصة جداً، لا يمكن إدارتها مثل الأعمال الأخرى. هنا، حضرتك تعرف ذلك جيداً، فالشخصية هي العنصر الحاسم.

كانت الليلة قد أصبحت بيضاء وكانوا الديكة يصيحون بانتظام

Twitter: @ketab_n

في الجبل، توقفوا عن الرقص وغنت امرأة، بصوت ناعم، بالفرنسية، «الحياة بلون وردي»، كانت قد عادت ووضعتها في آلة التسجيل.

- حضرتك ما زال بإمكانك إقامة حفل جيد ليوم السابع من يناير - قال له المدير، كانت المرأة في الأعلى تغني مشددة على الإيقاع، مضخمة الوقفات، كما لو كانت تغني حتى يتعلم الآخرون - وإذا ما كان الوقت يساعد، بإمكانك أن تكون متأكداً من أن الفندق سيمتلئ كل نهايات الأسبوع القادمة.

- أفكر بنفس الشيء - أجاب المدير، فتحوا زجاجة أخرى وأنا رفعت كأسي.

- سيكون عاماً جيداً، كن متأكداً.

- كل السنوات المفردة هي جيدة - أكد هو.

غادر الرجل الفندق القديم منذ الساعات الأولى للسنة المفردة، علموا بذلك في اليوم التالي، في منتصف النهار، عندما ظهر ليأخذ بعض الملابس - ليس جميعها، لم يترك الغرفة رغم أنه لم يأت لينام هناك بينما كانت الشابة في القرية - طالباً أن يأخذوا له طبق الطعام اليومي لبيت البرتغاليات. فذهبا إلى الجبل بوقت قصير بعد أن تركتهما متعانقين على الدرج، عندما كان جسد الشابة بدأ يصحح من الغضب الأولي عارضاً فقط أشياء لم تكن تتطلب مراسلات: وإنما حماية، صبر

Twitter: @ketab_n

ودواء للسهاد. لا بد أنهم صعدا إلى الأعلى، ولكن فقط للحظة، فقط لأنه احتاج أن يرتدي ملابسه وبينما كانت هي تنظر إلى الأثاث الذي كان يستعمله. ذهبا سائران في الليل وصعدا إلى الجبل، هو بحقيبة الشابة وآخذاً بيدها ليدلها، نصف خطوة أخرى، فخوراً ومصراً، نافذاً صبره للوصول لذلك الشعور بالامتلاك، لسلطة معتدلة، مستمتعاً بها كما لو أنه يسرقها، عارفاً بأنهم عندما يقفلون باب البيت كان سيبقى مجدداً كما لو أنه سارق، وما من شيء ليعطيه، سوى شيء آخر حقيقي أكثر من يأس مروّض.

بقيت الفتاة أقل من أسبوع ولم أرهما في أي من تلك الأيام، ولم يخبرني أحد أنه رآهما، في الحقيقة، كانا موجودان بالنسبة لنا في الرحلة اليومية، في منتصف الظهر، لعامل الفندق الذي كان يصعد الجبل بالوجبة وصحيفة يومية تحت ذراعيه. وكانا موجودان، أيضاً بالنسبة لي، في الرسالتين اللتين كانتا تصلان، الظروف بالأحرف الزرقاء الحادة والتي حفظتها في عمق الدرج للرسائل، منفصلة عن الباقيات. وكل ما استطعت أن أفكر فيه - بالنسبة لهما إضافة للرغبة المبهمة والحماس لمساعدتهما - لقد كانت الرحلة في الظلام، ويديهما متشابكتين، صامتين، هو متقدم قليلاً، منبهاً لها مخاطر الضغط على الأصابع، الظهر العريض المنحني كما لو أنه يدّعي العزم الذي يكلفه

Twitter: @ketab_n

سحبها، الرأسين منحنيين تجاه الأرض غير المستوية وغير المرئية، ضجيج الطيور الأولى فوق أكتافهم، خطوة خطوة، عاديون ودون سرعة فوق رطوبة الأرض والمراعي، كما لو أن البيت على ارتفاع لا منتهي، كما لو كان الوقت قد تجمد في شروق العام الأول.

لم أعد لرؤيتهم حتى عيد السابع من يناير، لم أتمكن من رؤيتهما بشكل مختلف، ماشين مطأطئي رأسيهما، مرتبطين بإصبعين، باتجاه الأعلى لليلة مشوقة، حتى المرض مرّ ما بعد الظهيرة قادماً من الرويال، سَنَدَ كوعه على المنضدة، وهمس دون النظر إليّ، على طريقة تلفظ إنجليز بريتون:

- جعة باردة، إذا كان هذا يروقك. - أخذ بالضحك وربت على كتفي - هكذا تسير الأمور. أخيراً ترك الكهف وتناولا الغداء في الفندق، ستغادر هي اليوم. ربما لم يعودا يطيقان أن يكونا معاً منعزلين أكثر من ذلك. على أية حال، يبدو أنه انتحار. قلت ذلك لغونز الذي كان عليه أن يوافقني. والرجل تابع دفع حساب الفندق، كاملاً، كل الأسبوع. ومتكلماً عن كل شيء، لأنه يسيء لها أيضاً، ليس نبيلاً، ما كان ليأخذها إلى الفندق، حيث رآه الجميع يعيش مع الأخرى. الجميع يعرفون بأنهما ينامان معاً في الشاليه منذ وصولها. وهي، بإمكانها تخيل ذلك، طوال الغداء وهي تنظر إلى الصحن، مخفية عينيها. على

Twitter: @ketab_n

أية حال، كان عليه أن لا يظهرها، متقصداً إظهارها. أنا ما كنت لأفعل ذلك، ولا أنت.

كانت عندما رأيتهما يصلان و ذراع أحدهما يلف ذراع الآخر والرجل حاملاً الحقيبة ومتهيئاً كما لو كان سيستقلّ القطار إلى العاصمة، تحدثا قليلاً واقفين تحت أشعة الشمس، ثم انعطفا باتجاه المتجر. انحنيتُ لأفتح دُرج البريد، ثمّ أغلقته دون أن أدخل يدي إليه. نظرت إليهما كما لو أنني لم أكن قد رأيتهما من قبل قط، معتقداً أنه كان بإمكاني اكتشافهما فيما لو واجهتهما لأول مرة. لقد كانت لحظة الوداع، لكن، هو كان سعيداً، خائفاً، غير مرتاح، ناظراً إلينا أنا والممرض بابتسامة سريعة.

جلسا بجانب النافذة، خلف طاولة الممرض، طاولة الإنجليز في نهاية العام. طلبا قهوة وكونياك، طلبت الشابة، دون أن تزيح عينيها عنه. كانا يتهامسان بكلمات ما، لكنهما لم يكونا يتحدثان، بقيت أنا خلف المنضدة والممرض أمامي، معطياً لي ظهره، مظهراً للباب وجه الفهم و السخرية التي فعلياً يوجهها إلى الطاولة. تكلمنا أنا والممرض حول الجليد، عن لغز مشبوه في حياة صاحب البيدريغال، عن الشيخوخة وسوئها، تكلمنا عن الأسعار، عن النقل، عن أشكال الجثث، عن الإصلاحات المضللة، عن إدخال التحسينات على القطاع المالي، عن

Twitter: @ketab_n

انعدام الأمن الذي هو جزء لا يتجزأ من شرط الحياة البشرية، عن الحسابات التي أجراها آل باراروسو جالسون ذات ظهيرة أمام حقل القمح.

هما لم يكونا يقومان أكثر من غمغمة جمل، وكان هذا فقط في البداية، لكنهما لم يكونا يتحدثان: كل منهما كان يذكر شيئاً، للحظة، يركّبان مقطعاً من ثلاث كلمات. بالتناوب، محترمين دور كل منهما، كل منهما كان يشرع بقول شيء ما، دون جهد، فيتبدى له في وجه الآخر، مفتونين ودون أن يرمشا، بتنهيدة قصيرة، يلعبان على من يتذكر أكثر من الآخر، أو من يتذكر الشيء الأكثر أهمية، غير آبهين بفكرة الانتصار. لم أتوقف عن النظر إليهما، لكن لا أنا ولا المرض تمكّنا من سماعهما.

وعندما كنا نتحدث عن مرض الروماتيزم لصاحب البيدروغال، وحبه المفرط للخيول، عندها توقفا عن الحديث، وكانت نظراتهما دائماً مثبتة على بعضهما. لم ينتبه المرض للصمت، أو أعتقد بأنها لم تكن سوى وقفة بين الجمل التي يتفوهان بها. متكئاً بخصره على المنضدة، مالَ باتجاهي قليلاً ورأسه متجه إلى الباب، قال:

- لقد كانت ليفا نوعاً خاصاً من المسؤولين في البيدروغال. نوعاً، أقول. أتخيل أنها بالنسبة للفرينغو لم تكن أكثر من مجرد خادمة. أما البقية فكان كله كذب، لكن عندما وقعت، قتلها الفرينغو بطلقة واحدة

Twitter: @ketab_n

ومنذ ذلك اليوم لم يأكلوا في المنزل لأن الغرينغو لم يرد ذلك. ولا حتى في أماكن الطعام.

كانا صامتين، ينظران لبعضهما، هي كانت مشدوهةً، الرجل لم يعد يداعب يدها، كان قد وضع يده على كتفها، وهي كانت؛ جامدة، ثابتة، و ظاهرةً لي. تابعتُ بالحديث حتى لا يعاود الممرض النظر إليهما، تكلمت عن الجسد الضخم للغرينغو، المائل، و هو متكئ على العكاز، تكلمت عن العناد، عن الرجل وعن المهر، عن صوته الأجنبي الذي يخرج من حنجرته، العنيد، المقنع، ضد الرأس المضطرب للحيوان، ضد العين الفزعة. وهما كانا صامتين وينظران إلينا، خلال الوقت الذي لم يكن بالإمكان قياسه ولا فصله، الذي شعرنا بأنه يجري ملاصقاً لدمنا. كانا ثابتين وجامدين. أحياناً كانت هي ترفع الشفة دون أن تعرف لماذا، ربما كانت ابتسامة، أو الشكل الجديد الذي كان سيعطيه الانتصار، أو الاعتراف الكامل، مخبرة من تكون هي.

دخل البعض للشراء حاملين قصصاً جديدة، سائق شاحنة هجم ليطلب ماء وعنواناً، الحافلة الأخيرة للبينوس مرت مهتزة، متعبة، عندما بدأت الشمس تجعل الظل يستطيل على الجبل. خمنتُ الساعة ونظرت إلى المنبه المعلق على الرف. كانا هما ثابتين حول الطاولة، الشابة جالسة و ذراعاها متصالبان على صدرها، دافعة مسند الظهر

Twitter: @ketab_n

للكرسي إلى الخلف لتكسب مسافة وترى أفضل، بينما هو معطي لنا ظهره، العريض والهزيل، يده على كتفها، والقبعة الكبيرة التي تخفي قفا رأسه. «دون أي غرض سوى النظر، دون تعب، دون إرادة»، فكرت بينما كنتُ أحوم بجانبهما، دون أن أتجرأ على إخبارهما أن الحافلة التي ستغادر إلى المدينة باتت على وشك الوصول. الآن استطعت رؤية وجه الرجل، هزيلاً، حزيناً و بلا معنويات.

كان الممرض ينظر إلي بابتسامة مليئة بالصبر.

- الحافلة - قلت لهما - ستصل على الفور.

حركا رأسيهما بالموافقة، عدت إلى مكاني خلف المنضدة وتكلمت مع الممرض بأنه من غير المجدي المواربة للهروب من المصير. فتذكر الممرض عدة أمثلة.

توقفت الحافلة أمام المتجر ودخل الحارس لتناول الجعة، كان ينظر إلى الحقيبة بجانب الشابة.

- لا أدري - قال الممرض، مظهراً ابتسامة بطريقة حقيرة - يمكننا السؤال. - بدا مغتاظاً عندما صفق بيديه -: آخر حافلة!

لم يتحركا، انكمش الممرض من كتفيه واتكأ من جديد بخصره على المنضدة، ابتسمت أنا للحارس، وجهاً لوجه. كانت الحافلة قد ذهبت وهبط الليل عندما فكرت أنه لم يكن كافياً أن يكونا خارج كل

Twitter: @ketab_n

شيء، لأن هذا «الكل شيء» كان ما زال موجوداً و منتظِراً اللحظة التي سيكفان فيها عن النظر إلى بعضهما صامتين، اللحظة التي ترتفع يد الرجل عن القماش الرمادي للرداء ليلمس الشابة. كان هناك بيوت دائماً ودروب، سيارات ومضخات بنزين، أناس آخرون موجودون يتنفسون، يشعرون، يتخيلون، يصنعون طعامهم، يتأملون بملل وتفكر، يتظاهرون بإجراء الحسابات.

واقفان في مواجهة الضوء البنفسجي للباب - كان حاملاً الحقيبة مبتسماً لي، رامشاً، سامحاً لي بالعيش -، رفعت الشابة يدها ووضعتها على خد الرجل.

- هل ستذهب سيراً على الأقدام؟ سألت - بينما هو كان ما يزال ينظر إلي.

- سيراً على الأقدام. لم لا؟ أحياناً أمشي أكثر من هذا بكثير. لا داعي للعجلة لأخذ القطار.

كان يتمرن، أمامي، يتمرن للآخرين، للآخرين الذين كنت أنا أمثلهم، يطل من خلف ثقل الدم المتعمد للممرض، متعاون ومثل صورة، ابتسامة لم أكن أعتقد بأنه قادر عليها، وعلى الرغم من ذلك، كانت هي تتأمل دون دهشة؛ ابتسامة حيث كانت إرادته تطالب بحماية الشابة، بحمايتها من مخاوف عابرة، بالتخفيف من الاعتراف باستحالة

Twitter: @ketab_n

إبقائها جانباً بمنأى عما نرمز إليه نحن، الممرض وأنا، المتجر، وارتفاع الجبل.

لوحا بأيديهما مودعين، وخرجا إلى الطريق. كان عليهما أن يقطعا مربعين على طول ملعب التنس للرويال و عمق النزل، بعد ذلك سينعطفان إلى اليمين ليمشيا بين جدران من التراب الأحمر، على مسار متعرج، بانحدار، حتى يظهرا أمام الضوء والعلم المرفوع على مركز الشرطة. يمشيان شبه متعانقين، أقل سرعة بكثير من الليل، يستمعان بتشتت لضجيج الغضب والانضباط التي ستصلهم من اليسار، من الأبنية اللامعة من حقل الطيران. ربما تذكرا تلك المسيرة في ليلة أخرى، عندما وصلت الشابة وصعدا إلى الجبل إلى البيت، ربما حملا معهما، سراً و تصرفاً ما، ولكن لم تكن متوفرة فيما بعد كما أذكر، الرحلة السابقة، المعاني الجلية التي بإمكانهما إضافتها و استبعادها..

عادت الرسائل تصل بانسجام: واحدة مكتوبة بالخط العريض الأزرق بجانب أخرى مكتوبة على الآلة الكاتبة. لم أشعر بالأسف تجاه الرجل، وإنما تجاه ما كان يستحضره عندما كان يأتي ليشرب جعته ويطلب رسائله دون كلمات. لا شيء في حركاته، صوته البطيء، صبره كان يشي بتغيير ما، بصمة لحقائق لا يمكن إنكارها، الزيارات والوداعات. هذا الجهل العميق أو التعقل، أو تلك الأعراض لنقص في

Twitter: @ketab_n

الإيمان الذي كنت أنا قد خمنته، بالإمكان تذكره بثقة. لأنه، إضافة إلى ذلك، حقاً كنت أبحث عن تعديلات، تصدعات وركامات وحقاً وصلتُ لأن اخترعها بنفسي.

كنا في هذا، بينما كان يتقدم الصيف، في كانون الثاني وشباط، وأسراب السياح تشغل الفنادق ونُزل الجبل. كنا، هو وأنا - رغم أنه لم يعرف أو يعتقد بمعرفة شيء آخر - يلعب خلال ذلك الصيف الجاف لعبة الرحمة والحماية. التفكير به، تقبله، كان يعني زيادة شفقتي وحزنه. اعتدت أن لا أراه ولا أسمعه، أن أعطيه جعته ورسائله كما لو كنت أعطيها لأي شخص آخر ممن كانوا يلجؤون إلى المتجر بأزيائهم الصيفية المتباينة.

- لا تعتقد أنني لا أنتبه - قال الممرض -

- لا أريد الحديث عن الرجل.

- ولماذا؟ سَحَركَ أنت أيضاً؟ إنه شيء لا يصدق ما يحدث في الفندق القديم. لا يلقي التحية على أحد، لكن لا أحد يريد الحديث بسوء عنه. عن الشابة، نعم. ولا حتى مع غونز، لا يمكن الحديث مع غونز عن موت الرجل. كما لو أنه لا يعرف، كما لو أنه لم يشهد موت مئة آخرين أفضل منه.

منتصف الظهيرة كان الرجل يأخذ رسائله، يتناول زجاجة من

Twitter: @ketab_n

الجعة ويخرج إلى الطريق، مومئاً بتحية ما، مقحماً نفسه دون مشاكل في الحرّ الذي لا يطاق، لافتاً انتباهي لثانية بالخراب المتواصل الذي يغزو كتفيه، الذي كان قد مل منهما، بطولي ولطيف عند رؤية جسده من الخلف أثناء مشيه.

كان قد انتهى الكرنفال للتو عندما هبطت المرأة من الحافلة، معطية ظهرها لي، متأخرة قليلاً لمساعدة الصبي. لم تتوقف بجانب الشجرة ولا انتظرت الشكل الطويل والمنكفئ للرجل، لم يهمها إذا ما كان بانتظارها أم لا. لم تكن بحاجة إليه لأنه لم يعد رجلاً وإنما تجريداً، شيئاً أكثر مراوغة ومع ذلك أكثر جرحاً. وربما كانت أكثر سعادة لأنه لم يكن هناك حاجة لمواجهته على الفور، ربما كانت قد نظمت الأشياء لتتأكد من هذه العزلة الأولى، دقائق الوقوف للتقييم والتأقلم. كان الصبي يبلغ نحو خمس سنوات ولم يكن يشبهها لا هي ولا هو، كان ينظر بلا مبالاة، دون خوف ولا ابتسامات، برأس واضح منتصب، محلوق حديثاً.

لم يكن ممكناً معرفة ما تخفيه وراء عدساتها المظلمة، لكن هناك كان الطفل، قدماه متدليتان من على المقعد وبينما هي كانت هناك، مقربة له الشراب، مصلحة له ربطة العنق الاسكتلندية، ماسحة شعره بلعاب فوق الجبهة. لم تكن تريد أن تتعرف إليّ لأنها كانت تخشى من

Twitter: @ketab_n

أيّة مخاطر غير متوقعة، من اتهامات وخطوات في الفراغ، حيتني عند ذهابها، محركة فمها بالكاد، كما لو أن الشفاه، النظارات، الشحوب، الرطوبة أسفل الأنف، كل الجسد الكبير والهادئ، كما لو أنها لم تكن سوى مندوبة عن نفسها، وكأنها كانت تعتبر أنه من الضروري الحفاظ على هذا المعنى حراً من انتباه الرجل. دون خسائر في ما كانت تجمعه وتحصنه من أجل تحقيق المفاجأة في المعركة هناك في الفندق القديم. وربما ليس حتى هذا، لعلها لم ترني ولم تذكرني، وفي مكان خالٍ من السكان، في عالم حيث بقي شيء واحد لكسبه أو لخسارته، تستمر، دون خطط حقيقية، بفطرة حيوانية، في المحافظة بالكاد مهتاجة من الإطار الزمني بدءاً من لقائها في صالة الرقص، في توزيع ميداليات وكؤوس، مع لاعب فريق دولي لكرة السلة، حتى تلك الظهيرة في متجري، حتى لحظات قبل التسلل إلى غرفة في الفندق، دافعة بركبتيها الطفل الصلف لتلجأ تتابعياً و تناوبياً، إلى الشفقة، إلى الذاكرة، إلى الأدب، إلى الأشياء المقدسة لأن الأمر كذلك.

كنا نحن الثلاثة في المتجر الفارغ، منتظرين أن يصدح بوق الحافلة لتتجه إلى البينوس. نظرت إلى كتفيها المدورين، بطئها الحامي، السخرية في الحركات التي كانت تقوم بها لتعتني بالصبي وهي تفرغ كأسها من عصير البرتقال. قارنت ما يمكن أن تمنحه هي والشابة، غير

Twitter: @ketab_n

واثق حول المزايا والعيوب، دون الانحياز إلى أي منهما. فقط كان من الأسهل علي التعاطف مع امرأة النظارات، تخيلها داخلة إلى غرفة ما في الفندق، توقع حركة التوقف والاندفاع التي ستحاول إقناع الطفل لترمي به على الفور نحو الجسد الطويل المتثاقل على السرير، باتجاه الوجه المتحسب والمنقبض وهو ناهض من قيلولته، مشدداً على إظهار حركة هرمة تدل على عدم الثقة بالكامل.

لو خيّرتُ بين الاثنتين، لكنت راهنت، ضد كل منطق على المرأة والطفل، للسنوات، للعادة، للتشرب. رهان جيد بالنسبة للمرض. لأنه في اليوم التالي، في منظر مماثل، بضوء متطابق مع السابق، رأيت الحقيبة الصغيرة تترنح أمام باب الحافلة، نفس الثوب الرمادي، القبعة المسحوقة من اليد البيضاء ذات القفاز.

دخلت ورأسها مرتفعٌ كثيراً، على الرغم من تلك الإنحناءة، التي كانت تخفف من ارتفاعه، والذي كان يوحي، بشكل مضلل، بالقدرة على الانفصال، دون نضال حقيقي، عن كل ما رأته أو فكرت به. حيتني كما ولو أنها تتحداني وظلت واقفة باعتدال أمام المنضدة، الحقيبة بين الحذائين، ثلاثة من أصابع يدها داخلة حتى منتصفها في جيب سترتها.

- هل تذكرني؟ - قالت، لكن لم يكن سؤالاً - في أية ساعة هناك حافلة إلى الفندق القديم؟

Twitter: @ketab_n

- ثمة نصف ساعة من الانتظار. إن رغبت، بإمكاننا محاولة الحصول على سيارة.

- مثل المرة الماضية - علقتْ دون أن تبتسم.

لكنني ما كنت لآخذها على أية حال. ربما فَكرَت باستحالة تكرار الرحلة والمفاجأة الأولى، أو بالحنين إلى محاولة ذلك. قالت أنها تفضل الانتظار وجلست خلف الطاولة التي كانت تعرفها، تناولت نفس وجبة المرض، جبن، خبز وسلامي، سردين، كل ما استطعت أن أقدمه لها. ذراعها متكئ على النافذة، كانت تنظر إليّ ذهاباً وإياباً، كانت تجرب معي التعبير المتسامح والمطوّل الذي كانت قد تخيلته خلال الرحلة.

- لأنني عندما أصل سيكون قد تناول غداءه - شَرَحَت، مساعدة نفسها على الاعتقاد أن خدمة الطعام في صالة الفندق في غير وقتها كان العمل الأكثر حماقة الذي يمكن أن تحمله إلى الفندق.

كان القلة القليلة من الزبائن يدخلون في الظل، يأتون نحوي ونحو المنضدة برؤوسهم الثابتة، عيونهم مسمرة في وجهي، يطلبون شيئاً ما بصوت منخفض، غير آبهين أن ألبيهم أم لا، كما لو كانوا يأتون فقط ليقاطعوا مراقبتي، وكنت أستدير على الفور لأراها، مستطلعاً الأطباق المصفوفة أمام الشابة. بعدها كانت العيون تبحث عني بمفاجأة مهيبة، بسخرية ومكر، وجميعهم، رجالاً ونساءً، ولا سيما الساخطين، نساء

Twitter: @ketab_n

متعبات هابطات من الجبل في ساعة القيلولة، كن يردن البحث فيّ عن نوع من التواطؤ، المصادفة في إدانة غامضة. كان الأمر، كما لو أن الجميع يعرفون القصة، كما ولو كانوا قد راهنوا على نفس المرأة و خشوا من رؤيتها تفشل. تابعت الشابة تناول الطعام، دون إخفاء وجهها ودون أن تظهره. ثم أشعلت سيجارة وطلبت مني أن أجلس لتناول القهوة معها.

لذا استطعت أن ألعب بهدوء على التوقعات والتخمينات، منشغلاً جدياً إزاء عيوبها، حساب سنوات عمرها، طيبتها. «سأكون مرتاحاً أكثر لو كرهتها»، فكرت. ابتسمت هي لي بينما كانت تشعل السيجارة، تابعت الابتسام خلف الدخان وفجأة بدأت أفهم للتو، تغير كل شيء.

كنت الأضعف بين الاثنين، المخطئ، كنت أكتشف السنوات الخمسة عشر البائسة و غير المتغيرة في القرية، الندم لكوني دفعت عزلتي كثمن، المتجر، هذه الطريقة لكي أكون لا شيء. لقد كنت صغيراً، بلا معنى، ميت. كانت تأتي وتذهب، لقد وصلت للتو لتعاني وتفشل، ولتذهب نحو شكل آخر من العذاب والفشل حيث لا يعنيها إحساسها المسبق. ولا بد أنها انتبهت أنني سأتنفس أفضل فيما لو تمكنتُ من كرهها، لأنها أرادت أن تساعدني وتابعت بالابتسام بين الجمل التي لا طائل منها، خلف الأصابع المتصلبة التي كانت تحرك السيجارة،

Twitter: @ketab_n

المتدرجة في حركتها حسب حاجتي، و محتفظة بابتسامة تهكمية، مؤثرة، مع اللمعان العدائي في عيونها.

وربما، حسب ما جرى معي فيما بعد، ما كنت أفعل ذلك - الابتسامة، الخمول، الوقاحة - فقط من أجل حقدي، راحتي، عودتي إلى الاستكانة، هل كنت أبحث أيضاً عن التوقف عن شفقتي في المستقبل القادم، في ساعة الهزيمة التي كنت قد تنبأت بها، أو في المرأة، بعيدة، أبعد من الكبرياء، و هي كانت قدر سيئ لحياته.

- العيش هنا يبدو كما لو أن الوقت لم يمرّ، وكما لو مرّ دون أن يتمكن من لمسي، كما لو كان يلمسني دون أن يغيرني - كنت أكذب عندما وصلت الحافلة.

كانت هي تملّس ورقة من عشر بيسوات فوق الجريدة التي صنعت منها مفرشاً، عادت لتضع القفازين ومشت نحو المنضدة مع الحقيبة الخفيفة.

«لم تأت لتبقى»، فكرتُ بينما كنت أعدّد التغييرات، «لم تحضر ملابس لأكثر من ليلة والتي يبدو أنها لن تكتمل. تعرف أنها سافرت لتسمع شيئاً سلبياً، لتكون منطقية و توافق، لتتواجد في الوقت المتبقي للرجل مثل أسطورة لسلوان مشكوك به». بالكاد غمغمت مجرد تحية، بابتسامة نحو الأرض.

Twitter: @ketab_n

واصلت النظر إليها، وما زلت أذكرها هكذا: متعجرفة و متسولة، متمايلة نحو الذراع التي كانت تمسك بالحقيبة، خالية من الصبر، عيونها منخفضة، مولدة مع ابتسامتها الجوع الكافي لتبقى على قيد الحياة، لتخبر أياً كان، برمشة، بحركة من الرأس، أن هذه المصيبة لم تكن ذات أهمية، أن المصائب فقط تفيد لتتحول إلى تواريخ، لفصل وجعل البدايات والنهايات للحيوات المتعددة التي نعبرها ونعيشها أكثر وضوحاً. كل هذا أمامي، في الجانب الآخر من المنضدة، رغم كل هذه الاختراعات المجانية المتداخلة في الظل والرائحة الفاترة، الرطبة والمرتبكة للمتجر. خلف سائق الحافلة كانت الشابة تمشي بذات ميلان كتفي لاعب كرة السلة السابق.

إذن، ذلك المساء أو أسابيع بعدها، لأن الدقة لم تعد ذات أهمية، لأنه منذ تلك اللحظة لم أعد أرى منهم أكثر من اختلاف أنماطهم في الفشل، الممرض والخادمة ريينا، بدؤوا بسرد قصة الخاتمة عليّ في الفندق وفي البيت. «خاتمة»، فكرت أنا، مدافعاً عن نفسي، «نهاية للقصة المناقش حولها، بالصيغة التي يقدر هؤلاء الاثنان على تخيلها».

كانا يجتمعان في المتجر، هو والخادمة، بعد كل ظهيرة، بعد الغداء. كان بإمكانهما أن يلتقيا في أي مكان دون أن يكون أحد في القرية أو في العالم يعنيه رؤيتهما معاً، ما كان لأحد أن يفكر بأنهما ما

Twitter: @ketab_n

كانا موجودين إلا ليلتقيا. لكن يبدو لي أن المرض، أو هي نفسها، ريينا، الغليظة، بفمها المفتوح، بتلك العينين الباردتين، غير المقنعة، واحدة من تلك النساء اللواتي تنتظرن وقتاً طويلاً، أحدهما اعتقد بأنهما يضيفان شيئاً إذا ما تواعدا عند القيلولة في المتجر، إذا ما كانا يتظاهران - أمامي، أمام الرفوف، أمام الجدران الكلسية وفقاعاتها المتصلبة - أنهما لا يعرفان بعضهما، إنما كانا يلقيان التحية على بعض بإطراقات رأسيهما، وكانا يطلقان بعض العبارات البائسة ليجتمعا إلى طاولة ما والبدء بالحديث. لا بد أنهما كانا يشعران بأنهما فقراء، دون عقبات حقيقية، دون اضطهادات واقعية، كانا ينتهيان دائماً بالعودة تجاهي بوجههما المبتسمين المدورين، حريصين على أن لا يتلامسا، كانا يشكان بأنني راهنت على المرأة العريضة ذات النظارات القاتمة وكانا يعملان على الدفاع عنها، على التعاطف بعناية مع الميزات المتعددة التي كانت لديها أو كانت تمثلها، مع القيم الأبدية التي كانت تمتلكها و تمثلها المرأة الأقدم بين الاثنتين، خلال ثماني وأربعين ساعة، في الفندق وفي المنزل.

- إنه يستحق القتل - قالت الخادمة -. قتله هو. لهذه العاهرة، اعذراني، لا أدري ماذا كان يمكن لي أن أفعل. إن الموت قليل حين أفكر بأن هناك طفل.

Twitter: @ketab_n

- طفل في الوسط - أكد الممرض، لكنه كان يبتسم لي بخبث، منتقماً، متأكداً من استحالة التباين في الرأي -. حضرتك أخذتها إلى الفندق تلك الليلة في نهاية العام. طبعاً لم يكن بإمكانك أن تتخيل.

- كيف كان له أن يعرف! - صرخت هي بغضب، باحثة عن عيني لتبرئني.

أنا كنت أسمعهما يقصان ويؤلفان الخاتمة، فكرت في قطعة الأرض، المرتفعة، المفلسة، التي كنا نعيش عليها، في قصص الرجال الذين سكنوا فيها قبلنا، فكرت في الثلاثة والطفل، الذين وصلوا إلى هذه القرية لينعزلوا ويمارسوا الكراهية، للمناقشة، وحل ماضٍ مشترك لم يكن له أي علاقة بالأرض التي كانوا يطؤونها. كنت أفكر في هذه الأشياء وأشياء أخرى، باقياً خلف المنضدة، بينما أغسل الأطباق، وازناً السلع، معطياً ومستلماً مالاً، كان دائماً بعد الظهر، مع الممرض وربينا في الزاوية، أسمعهما وهما يتهامسان، عارفاً بأنهما يضغطان يديهما.

عندما وصلت الشابة إلى الفندق، كان الرجل المرأة والطفل ما زالوا في صالة الفندق، صامتين، يحتسون القهوة. رفعت المرأة رأسها ورأتها. كانت الأخرى قد توقفت على بعد طاولتين، مع حقيبتها التي لم ترد تركها عند الباب، مطالبة بابتسامتها العالية والمتعجرفة إلى حد

Twitter: @ketab_n

ما، بهدوء عينيها المذهولتين، أنها لم تكن تريد أن تؤذي ولا أن تؤذى، لم يكن يعنيها الخسارة أو الربح، وأن كل ذلك - الاجتماع الثلاثي في الجبال، النقاشات المتوقعة، عروض التضحية - كان، وكنت قد اكتشفت ذلك للتو، مثيراً للضحك، حسناً، دون معنى، كما يجب أن يكون أي اتفاق من الممكن أن يصلوا إليه غير عادل. مع ذلك، فعلى الرغم من نظرة الجفاء التي كانت تنظر فيها إلى الطاولات الفارغة، الكؤوس الملطخة والمناديل في حالة فوضى، تظاهرت - كان هذا لريينا مقززا وغير مفهوم - أنني لم استطع تمييز المجموعة الهزيلة، المتأخرة عن تناول فناجين القهوة الفاترة.

- كانت تكسب الوقت، حتى هي نفسها شعرت بالخجل لمشاهدة الطفل.

رأتها المرأة تتوقف، تتقدم دون رغبة، وعرفتها على الفور. لم تكن قد رأت أبداً صورة لها، لم تتمكن قط من استخراج صفات كافية من الرجل لبناء صورة لما يمكن أن تخاف وتكره. لكن على أية حال، كانت قد تخيلت وجوهاً، أعمار، أشكال، وتخيلات كانت قد أطلقتها، وتغيرات هادئة للحقد - والتي كانت، متناوبة، مصادر رحمة ذاتية، منقلباً إلى ألق خطوبة وشهر عسل - لم يكن ممكناً أن يكون هناك علاقة مع الشابة التي كانت تقترب من الطاولة بابتسامتها وحميميتها. نهض

Twitter: @ketab_n

الرجل، ظهر كليهما أكثر حزناً وتقلصاً، براعم الأصابع العشر على مفرش الطاولة، تتدلى من شفتيه السيجارة البطيئة التي حصل عليها من على الطاولة ولم ينزعها.

لم يتفوه بكلمات ترحيب أو تقديم، ولم يعاود الجلوس لأن الشابة لم تفعل ذلك: بقيت واقفة، مرتفعة فوق الزجاج المظلم والفم المظلم للأخرى، فوق الفضول الخارج من رمشات عيني الطفل، دون حاجة لابتسامتها، مفكرة، خالية من الوعود، أمام حافة المفرش المتقلب للغداءات - كما كانت كذلك قبل ساعة - أمامي وأمام المنضدة، بمقدمة الحقيبة متكئة على كرسي لتقاوم حدة غزو التعب.

نسيت المرأة التوقعات التي كانت قد بنتها، تذكرت أنها كانت قد تخيلت الشابة بالضبط كما هي، تعرفت على عمرها، الجمال العابر، قوة وزيف التعبير الصادق والساذج. كانت، من جديد، تكرهها، دون جهد، منقادة بعادة طويلة، بمساعدة الأمان المفاجئ بأن تكون قد كرهتها طوال حياتها.

تركت المرأة سيجارتها تقع فيما تبقى من القهوة، نظرت ليدها كثيرة الخواتم وداعبت الطفل، مبتسمة له، محركة الشفاه مصدرة أصوات لم تكن تقصد إلى تركيب أية كلمات، كما ولو كانت لوحدها معه. عندها الرجل، الطويل، المنحني، تشجع لأن يزيل يديه عن المفرش،

Twitter: @ketab_n

ونزع السيجارة من فمه وقدم كرسياً للشابة. لكن هي، راسمة على وجهها ابتسامة لم يكن فيها شيء من الازدراء، و لا من الاحتقار ولا من الحب، دون النظر لعيني الرجل، أزاحت الحقيبة عن الكرسي و سارت عائدة من الطريق الذي كان بين الطاولات.

- أنا لم أقل لها أن تأتي هنا - شرح الرجل، دون عاطفة - ليس إلى الفندق.

- شكراً - قالت المرأة، مداعبة شعر الطفل، كانت تمسك بوجنته بأصابعها - إنه نفس الشيء هنا أو في مكان آخر. أليس نفس الشيء؟ إضافة لذلك لم نكن قد قررنا؟ أحياناً ننسى لمن هو المال. كان عليك أن تدعوها لتناول الطعام. - نظرت إليه، مظهرة أن بإمكانها الابتسام. بفم مفتوح، ناعساً، حزق الطفل، مرتعداً، جففت المرأة عرقه أسفل الأنف وعلى الجبين.

كانت الشابة قد عبرت ظل البار، أمام قطعة الأثاث المليء بمفاتيح البوابة، بطيئة، معطية ظهرها بشكل كامل للصالون. توقفت في التراس لتغير اليد التي تحمل الحقيبة وأخذت تهبط الدرجات. لم تكن قادرة حينها على البكاء، لم تظهر الهزيمة ولا النصر بينما كانت تهبط، خطوة خطوة، رشيقة ودون سرعة. توقفت حافلة الخونكيللو أمام الفندق ونادى السائق بالبوق، هبط رجل ليمدد رجليه كان يتمشى،

Twitter: @ketab_n

ذهاباً وإياباً، صغير، ساه، بمعطف أحمر متدلٍ من كتفه. ربما رأت الأولاد المظلمين، بأسمالهم، يركضون في ملعب كرة القدم.

- بقي هو للحظة دون أن يعرف ما يفعل، يجب القول، لم يخرج راكضاً مثل المجنون خلفها - روى الممرض والخادمة - بقي ناظراً في الصالون الفارغ إلى المرأة والابن الذي كان يبدو مريضاً. حتى استطاعت الأخرى أن تظهر أكثر من الخجل والاحترام وقالت أي شيء وخرج في إثرها، بطيئاً كالعادة، متعباً. ربما طلب الصفح. التقطها أمام الحافلة، أمسك بذراعها وهي لم تتحرك ولا حتى حركت رأسها لتعرف من يكون.

تناقشا تحت الشمس، واقفين، بينما كان عامل الفندق يركض حتى الحافلة، محملاً بالعلب. وعندما بدأت الحافلة بتخفيف شدة المكابح وبدأت تهبط باتجاه المتجر، بدأت هي بالضحك وأخرجت الحقيبة.. يداً بيد، ببطء، صعدا طريق الجبل، مرًا في موازاة ملعب الكرة والذي بدأ يحيط به الجمهور، انعطفا هناك في الأعلى، عند زاوية طبيب الأسنان، وتابعا متعرجين حتى بيت البرتغاليات. تأخر الرجل في الغرفة، كان ينظر من هناك إلى النهر الجاف، الحصى، مكب قمامة الفندق، لكنه لم يدخل، رؤوهما متعانقين وهما يهبطان الدرج إلى الغرفة. أقفلت هي الباب وعادت لتفتحه عندما كان الرجل بعيداً،

Twitter: @ketab_n

استطاعت رؤيته حتى اختفى خلف مقالع الأحجار، عادت لتكتشفه، صغير، غير دقيق، على حافة الملعب وفي الطريق.

تخيلتُ الرجل عندما كان يهبط مهرولاً نحو الفندق، بعد العناق، واعياً لطوله، لتعبه، أن وجود الماضي يعتمد على كمية الحاضر الذي نمنحه له، وأنه من المحتمل إعطائه القليل، إعطائه لا شيء. كان يهبط الجبل، بعد العناق، شاباً، صحيحاً، مجبراً على تجاوز كل المصاعب، مستفزاً لهذه المصاعب.

- لم يكونا هناك. عندما عاد، كانت السيدة قد غادرت مع الطفل وكان الطفل يركل الدرج. كان باب الغرفة مقفلاً من الداخل، وهكذا كان على الرجل أن يطرق وينتظر، مبتسماً متصنعاً أمام كل من مر في الممر، حتى نهضت وشعرت بالمزاج لتفتح - هذا ما ذكروه - وأصر الدكتور غونز على القول أنه لم يرى شيء رغم أنه كان في الصالون عندما وصلت هي مع الحقيبة، لكن لم يكن هناك من مناص لأن يقول، كلمة، أن الرجل كان لا بد أن يكون قد دخل المصحة من اليوم الأول. ربما هكذا، كان يمكن عندها أن يكون هناك أمل.

وهو طرق وضرب الباب طويلاً، محرجاً في الممر الذي كانت تؤمه الخادمات والنساء العجوزات اللواتي كن يعدن من المسيرة الهضمية في الحديقة، وكان، بينما ينتظر، يستحضر أسماء قديمة، مغرقة في

Twitter: @ketab_n

الحزن، أسماء كان قد اخترعها منذ زمن طويل لإمرأة لم تعد موجودة. حتى جاءت هي ووضعت المفتاح، نصف عارية، مبالغة في الحشمة والنعاس، بدون نظارات الآن، وابتعدت لتعاود الاستلقاء في السرير. استطاع رؤية شكل الأفخاذ، القدمين الحافيتين، و الفم المفتوح للطفل النائم. قبل أن يتقدم، فكر، عاد ليكتشف، أن الماضي لا يساوي أكثر من حلم بعيد.

- نعم، يفضل الانتهاء على الفور - قال عند الجلوس في السرير، بدون المزيد من المعاناة من التحقق أن الأمر كله في غاية البساطة - كان محقاً، لقد كان الأمر سخيفاً وغير صحي.

ثم شبك ذراعيه وكان يستمع بدهشة إلى بكاء المرأة، حزيناً، كما لو كان نادماً بغموض ليس للفعل، وإنما لتفكير سيء، شاعراً أن البكاء يشير إليه بشكل غير عادل. كان منكمشاً، مبتسماً، تاركاً أن يمتلئ بالطيبة حتى يصبح لا يطاق. ربت ورك المرأة بحماس.

- سأموت - شرح.

كان نهاية بعد الظهيرة مهدراً، فمن المرجح أنه حاول امتلاك المرأة، معتقداً أنه سيكون من الممكن منح الفرح و الجنون لها. عندما حل المساء، هبط الرجل من الغرفة وأخذ بالمزاح مع البواب ومدير البار.

- هبط مرتدياً كما دائماً، تلك البزة الرمادية والتي لم تكن

Twitter: @ketab_n

صيفية ولا شتائية، بالقميص وربطة العنق والحذاء اللامع. ليس لديه بزة أخرى، لكن كان يبدو أنه قد اشترى للتو كل ما يلبسه. وكان كما ولو أنه لم يحصل شيء في الغداء، ولو أن الشابة لم تصل ولم يعلم أحد بكل ما جرى. لأنه لم يحدث أن فعلها، فلقد هبط سعيداً ومتكلماً، أجرى بعض النكات مع البواب وأجبر مدير البار أن يتناول كأساً معه. شيء لا يصدق. وحيّا بابتسامة كبيرة كل من وصل هناك لتناول الطعام. لدرجة أنه لا أدري من سأل غونز إذا ما كان قد أعطاه تصريح الخروج.

وضعوا طاولة في التراس للطعام وجلسوا معاً عندما هبطت الشابة واقتربت منهم، كسولة، لطيفة. مدت يدها للمرأة وتناولت الطعام معهم. سمعوهم يضحكون ويطلبون النبيذ. كانت المرأة العريضة قد فقدت الاهتمام بالطفل وكانت الأخرى، الشابة، تحرك يدها بانتظام لتمسد له شعره فوق الجبهة.

لكن كان هناك الساعتين اللتين قضياها منذ أن هبط الرجل من الغرفة حتى أتى النادل قائلاً له أن الطاولة ستكون جاهزة على الفور في التراس، وكان قد تقوّم في منضدة البار مادأ ذراعه للمرأة ذات النظارات. الساعتين وما فعله أثنائهما حتى يستعيد امتلاك الوقت الذي عاشه في الفندق، ليحمله في ذاكرة الآخرين، بتعابير الاهتمام والمجاملات البسيطة التي جعلت منها محتملة، مشتركة، مختلطة مع

Twitter: @ketab_n

الأوقات التي عاشها الآخرون. كل ما كان قد فعل الرجل ووزعه في ساعتين، حتى يوزعوه هم على ذكريات الاشهر السابقة، الابتسامات، الدعوات والتحيات الصاخبة، الأسئلة القلقة، لجرأة معذورة، حول درجات حرارة وأنظمة، الربتات القوية في ظهور الرجال، النظرات المحترمة والمتلهفة للنساء. كان هنالك مكان أيضاً للكوميديا القصيرة، في رقصات مع الذين شربوا معه في البار، الجاذبية المفاجئة، اليد مرتفعة متوسلة التواطؤ والصمت، نظرة الانتباه والاحترام للطبيب غونز - الذي كان قد دخل للتو في الصالة مطالباً بصحف الظهيرة بينما الجسم الطويل مستقيم تماماً، منتعش، ثابت فوق الأرضية. «خمس وسبعون»، أعلن مرتاحاً عندما استقر من جديد في منضدة البار. بالتأكيد كان يكذب. «هل لي بكأس أخرى».

جميعهم كانوا يضحكون وبينما كان يظهر الامتنان للجميع، محافظاً على ابتسامته التي كان يوزعها في ظهورهم، بينما كان يفكر في سهولة خوف الرجال من الموت، ليكرهوه، ليعتقدوا بأنهم تهربوا منه، ليعيشوا بدونه. كان الأمر يدعو لليأس أو لجعل أياً منهم يتفوه بأشياء حمقاء دون معنى، التكلم بالسياسة أو قراءة الكلمات الأجنبية للصاقات الزجاجات في الرف. وكما كان يدفع بدون بخل، بسرعة وعناد، الديون التي كان يراكمها منذ يوم وصوله، طلب إذن من التماثيل النصفية

Twitter: @ketab_n

الموجودة حول إعلانات سياحية معلقة على زجاج المنضدة، واقترب، بكأس مليء في يده، إلى طاولة من شجر الصفصاف حيث كان الطبيب غونز يقرأ أخبار كرة القدم والممرض يسجل في مفكرة الحقن التي كان قد جهزها للطواف المسائي.

- وددت لو رأيته. لقد كلفني الكثير لأقتنع أنه كان هو نفسه.

كان ممسكاً الكأس بأصابعه الخرقاء، مستعرضاً لمعان ربطة العنق وقميص الحرير - «كما لو أنها الليلة الأسعد في حياته، كما لو كان يحتفل بشيء» - مبتسماً بطاعة لشارب الطبيب غونز الأشقر، اللمعان الذهبي لنظاراته، للكلمات السريعة، الخنفاء، التي كان الطبيب يقولها.

- وأنا كنت أروح ذهاباً وإياباً، حاملة البياضات وأطباق الصالون، لأنه، وللمصادفة، العاملة الأخرى كانت مريضة أو هكذا قالت. وكنت آتي محملة بالأطباق من الإدارة مارة بين منضدة البار والطاولة حيث كانوا هؤلاء، قبل أن تهبط السيدة مع الطفل، وحيث كانت قد طلبت مني قبل ذلك مياه معدنية وأسبرين. ورأيته، من الخلف، بشعر مسرح جيداً، يهز نفسه في الكرسي الهزاز، ضاحكاً أحياناً، شارباً من الكأس الذي كان دائماً في يده. وكانوا يتحدثون عن أي شيء، عن المطر أو عن البئر في ملعب التنس. بدءاً من الموجة التي لا يمكن وقفها من الفرح

Twitter: @ketab_n

والصداقة التي كان يوزعها للجميع، ومستشيراً الطبيب حول آمال منطقية، حول الشهور التي تبقت له من الحياة.

وفي هذه اللحظة كان عليها أن تكون أكثر مرئية - ليس لغونز، ولا للممرض، ولا للرحلات المتخمة بالأطباق للخادمة - السخرية بدون مصير الموجودة في حملته الخاطفة لاستعادة الوقت، في محاولة تعديل الذكرى اللافتة، الكريهة، التي كان فرضها على نزلاء وسكان الفندق والقرية. في الابتسامة التي كان يضعها مستمعاً لغونز، كانت الريبة المبدئية التي خمنتها فيه منذ النظرة الأولى، مستعرضة، شبه العنيفة، سبات لعجز الثقة الذي كان يجب اكتشافه لديه منذ الربتة الأولى في الظهر والذي كان قد قرر الموافقة تماماً في اليوم الذي كانا فيه الخادمة والممرض يتجادلان حوله.

- لكن من بإمكانه أن يفاجئ غونز على حين غرة؟. فقد تحدث عن الشفاء التام، كما دائماً، قال لها أنه نصحه منذ البدء أن يدخل المصحة ليخضع لإشراف كامل. والرجل، الذي كان لا بد أنه في حالة سكر، لكنه لم يفقد خط المحادثة، كان يضحك قائلاً أنه لا يحتمل العيش في مصحة. وعندما ظهرت المرأة، مع الطفل بين ذراعيها، على السلالم، بدأ هو بالحديث إلينا عن مباراة مع الأمريكيين، وأن ثمة من قال أنهم خسروا بسببه، وكيف أنه استطاع بالكاد ألا يبكي عندما قربوا له

Twitter: @ketab_n

الميكروفون في نهاية المباراة. انسحب وعاد إلى منضدة البار، ترك المرأة لتمر مع الطفل من خلفه وأن تخرج إلى الشرفة. ذهبتُ لأسأل عامل البار إذا ما كان هناك مكالمة لي، وبينما كان هو يقص نفس القصة عن مباراة كرة السلة مع الأمريكيين، الآن حرفاً حرفاً، رمية رمية.

- عندما صعدتُ إلى الغرفة 40 لأعطي السيدة الأسبرين والمياه المعدنية استقبلتني بحب جم. كان الطفل واقفاً على الكرسي، بجانب النافذة، ناظراً إلى الخارج ومنادياً على قطة. ساعدتني هي على وضع الصينية فوق الطاولة وقالت لي، أذكر، أنها فكرة عظيمة ارتداء حذاء مطاطي. قلت لها أنه مريح، لكن جعلني أبدو قصيرة. كانت ترتدي تنورة داخلية، دون نظارات، وعيناها كبيرتان جداً وخضراوان، مع سواد تحت العينين. شَعَرتُهَا تنظر إليَّ بينما كنت أفتح الزجاجة، متكئة على الجدار، الذراعين متقاطعين، تقريباً شادة الكتفين. كما لو كنا صديقات، وكأنني صعدت إلى الغرفة 40 لأقص عليها شيئاً لم أكن متحمسة له بينما هي تنتظر. وعندما كنت ذاهبة نادتني محركة ذراعاً وقالت لي دون سخرية: «لو رأيتني حضرتك، هكذا، مثل الآن، دون أن تعرفي شيئاً عني... هل كان سيبدو لك أنني امرأة سيئة؟». «أرجوك يا سيدة»، قلت لها. «على أية حال، المرأة السيئة ليست حضرتك».

لماذا كان قد اختار هو، من بين كل الأشياء التي لم تكن تهمه،

Twitter: @ketab_n

قصة مباراة كرة السلة؟ رأيته مقوّماً جسده في شريط البار، مشتتاً من جانب لآخر القصة بغير معنى للذنب، لهزيمة وشباب. رأيته يختار، أفضل ما يعرف اختياره، كالرمز الأكثر فهماً وكمالاً، ذكرى تلك الليلة في اللونا بارك، الذكرى غير المخلصة، المشوهة مرات كثيرة، من المزاحات في غرفة ملابس اللاعبين، لتذاكر أُعيَد بيعُها بمائة بيسوس، للكفاح، العرق، الشجاعة، الحيل، للوحدة في خيبة الأمل، للانبهار تحت الأضواء، ووسط ضجيج الحشود التي تغادر بدون صراخ.

ربما لم يكن يختار ذكرى وإنما ذنب، عار عام، محتمل، ألم يعترف بمسؤوليته، بأنه لم يعد هنالك ما يجعل الآخرون يشفقون عليه، وأنه يستطيع العودة للعيش، مضخماً الأمر حتى يحيله إلى دمار، حتى يصبح قادراً على تغطية كل ما يمكن أن يتبقى من الندم.

- تناولوا الطعام في الشرفة، كأصدقاء حميمين، كما لو كانوا يشكلون، الأربعة، عائلة متحدة، وهو شيء نادر. وعندما انتهى الطعام رافق الرجل الشابة إلى الشاليه وهبطت المرأة الدرج، محملة بالطفل، لترافقهم حتى بوابة الفندق. بعد أن أخلدت الطفل إلى النوم عادت إلى الصالون وطلبت كأساً من الليكور. كانت بانتظار بقاء غونز لوحده، عندها دعته وتحادثا لنصف ساعة، الوقت الذي استغرقه الرجل في الذهاب والعودة.

Twitter: @ketab_n

لم تكن حزينة ولا سعيدة، كانت تبدو أكثر شباباً وبنفس الوقت أكثر نضجاً عندما رآها من باب الصالون وأخذ بالاقتراب، منتصباً، ضامراً، بوجه ساخر ويقظ. تكلم غونز لبعض دقائق، ببطئ، مفكراً، بينما كان ينظف النظارات. يد المرأة تلامس يد الرجل، بعناية، وبشكل غير ضروري. أسفل الكذب، أسفل التعبير الورع، كان يوجد لديها الدهشة والفضول. متفحصة الرجل كما لو كان غونز قد قدمه لها للتو، بعد أن جعلها تسمع سيرة ذاتية قصيرة متجاوزة الحاضر، قصة ذات نبوءة ومصداقية تصل لتغطي بعض الشهور الموجودة أبعد من تلك اللحظة، لتلك المصادفة. لم تنم أبداً معه، كانت تجهل عاداته، عاداته المنفرة، ومعنى حزنه. غادر غونز بعد أن شربوا قليلاً، صامتين، منفصلين إلى الأبد، المتفق عليه الآن. وعندما صعدا الدرج لينا موا، شعرت هي أنها مضطرة إلى السير مستندة إلى الحصن الذي كان يمثله الرجل، متخيلة ومجربة تغييرات على الإحساس الذي كان يمكن أن يمنحهما جسديهما، خطوة خطوة، للمساء وللذين بقوا يتثائبون في البار، مكتشفين - بحماس خجول لم يكن يجب القبول به أبداً - أن لا شيء يدوم ولا يتكرر.

- لكن في ما يتعلق بتلك الليلة - أصر الممرض - كان أمراً غريباً جداً: المرأتين كما ولو أنهما صديقتان من الأزل، القبلة التي طبعاها

Twitter: @ketab_n

عندما توادعا، ما حصل ذلك اليوم لا يصدق. لأنه بعد الغداء كانت هي من فعلها، لوحدها، شقت طريقها حتى الشاليه، بصرة ينبغي أن تكون طعاماً. بقي الرجل مع الطفل، وأخذه للتمشي إلى المكان الأكثر لطفاً والذي وجده في كل هذا الوقت: مكب القمامة. انبطح بقميصه في الشمس، بالقبعة على وجهه، كان يقتلع العشب الجاف دون أن ينظر إليها ليمضغها بينما الصبي يمشي على الحصوات. كان بإمكانه أن ينزلق وأن يكسر رقبته. والرجل ينظر إليه، منبطحاً تحت الشمس واضعاً الكيس كوسادة، القبعة مغطية العينين، تقريبا بجانب كوم الأوراق، الزجاجات المتكسرة والقطن الوسخ، وكأنه كان خنزيراً في حظيرته، دون أن يهمه شيء من شيء، ولا الطفل الذي ربما كانوا يتحدثون عنه النسوة هناك فوق. وعندما بدأ الطفل يشعر بالبرد، أو الجوع أو الملل، أتى ليهزه حتى نهض ووضعه على كتفيه ليعود به إلى الفندق. وصلت هي في حوالي الخامسة هناك، كانت تبدو أكثر نحولاً، أكبر سناً، وبقيت وحدها في البار تتناول كأساً، مخفية وجهها خلف يدها، دون أن تتحرك، دون أن ترى. ثم صعدت بعد ذلك ليحصل النقاش الكبير.

- ليس نقاشاً - صححت رينا بلطف - أنا كنت أنظف غرفة مقابل غرفتهما ولم يكن هناك من مناص إلا أن أسمعهما. لكن لم أسمع

Twitter: @ketab_n

جيداً. قالت هي أن كل ما تبتغيه هو أن تراه سعيداً. هو أيضاً لم يكن يصرخ، وكان أحياناً يضحك، لكنها كانت ضحكة مزيفة، غاضبة. «لقد قال لك غونز أنني سأموت. أمن أجل هذا التضحية، التنازل؟». هنا أخذت هي بالبكاء تلاها على الفور بكاء الطفل. «نعم»، قال هو، فقط ليعذبها، «أنا ميت، لقد قال غونز لك ذلك. كل هذا، ميت بمتر وثمانون سنتم، هذا ما أنت تهدينه لها. هي كانت ستفعل ذلك، أنت كنت ستقبلين نفس الشيء».

- لا يعني أنني أدافع عنه - قال المرض -، لكن يجب التفكير بأنه كان يائساً. لا يمكن إنكار أنه كان هناك ثمة ترتيب بين كلا المرأتين، وبالرغم من أن هذا ما كان يسعى هو إليه، فعندما حصل الأمر كان قد رأى الحقيقة. بالطبع كان هو يعرف الحقيقة مسبقاً. لكن الأمر هو كذلك دائماً. لقد رأيتها حضرتك تأتي مع الطفل وتستقل الحافلة، متأكداً تقريباً أنها ستذهب إلى الأبد هذه المرة. أنهما يعيشان في الشاليه، يأخذون لهما الطعام من الفندق ولا يخرجان أبداً. يروهما فقط لمرات قليلة، يدخنون مساءاً في الغرفة. وغونز قال لي أن الأمر سيكون سريعاً، حتى ولو وضع في المصحة.

مرت هي، هذا صحيح، إلى المتجر، محملة بالطفل، دون أن تدخل، مختارة ظل الشجرة في انتظار الحافلة. نظرتُ إليها من

Twitter: @ketab_n

المنضدة، بينما كنت أغسل كأساً، كما لو كنت أتجسس عليها. كنت سأعرض عليها أي شيء تود أن تشربه. كنت سأقول لها أننا متفقين، وبأنني كنت موافقاً معها بأن ما كانت تتركه للأخرى لم يكن جثة الرجل، وإنما شرف مساعدته على الموت، مجموع ومحور حياة الرجل.

بقي الآخران مقفلين على أنفسهم في البيت حتى أوائل الشتاء، حتى أيام بعد التثليجة الوحيدة في العام. لم تصل رسائل أخرى، فقط طرد بعبارة «ملابس مستعملة».

ذهب اندرادي، صاحب مكتب الإيجارات أربع مرات لزيارتهما وكانت تستقبله الشابة دائماً، لطيفة وودودة، متجاهلة فضوله، جاعلة كل الأعذار التي كان قد صنعها اندرادي ليتأخر أثناء رحلة الدراجة الهوائية غير مجدية. كان اليوم الأول في الشهر، الضربات على الباب كان فقط اندرادي يمكن أن يطرقها. خرجت هي على الفور، كما ولو كانت تنتظر، بسترتها الداكنة، البنطال مجعد، بالحركات السريعة الدقيقة لجسدها الشاب، حيّته، غيرّت المال بصمت دافعة الوصل وعادت لتحيي. صعد اندرادي الدراجة وعاد متحركاً كالأفعى إلى مكتبه أو تابع متجولاً على بيوت الجبل التي كان يديرها، مفكراً فيما رآه، فيما يمكن أن يكون مقبولاً توقعه، وفيما يمكن أن يكذب ويحكي للآخرين.

في نفس اليوم لمغادرة المرأة مع الطفل، دفع الرجل حسابه في

Twitter: @ketab_n

الفندق وذهب. رغم أنه لم يكن موجود في الأصل، بالنسبة لرواد الفندق، واحد منهم، بدأت المجاملات، الاغداقات التي نشرها في الليلة الأخيرة تصبح منسية بدءاً من اللحظة التي هبط الدرج وهو يضع وصل الدفع في جيبه، والمعطف الواقي من المطر على كتفه، موزعاً تحيات صامتة بحماس أخير، موزعاً ابتسامته من جانب إلى آخر. زبائن غونز وكاسترو عادوا ليصبحوا فرديين على الفور، بحنق أكثر من السابق، كل شيء من الأشياء التي كانت تفصلهم عن الرجل، لا سيما أنهم عادوا ليشعروا بالإصرار الذي لا يطاق للرجل بعدم قبول المرض الذي كان يربطهم به.

لم يتمكنوا من إعطاء اسم للإهانة، ملتبسة ولا تغتفر، والتي عاشها هو بينما كان يوجد بينهم. كانوا يركزون حنقهم في بيت البرتغاليات، الواضح عندما كانوا يستريحون في الشرفة أو عندما كانوا يتمشون في الحديقة على ضفاف الجدول. مرتين في اليوم، حتى أصبحت الليالي أطول، ومن الرحلة الثانية فقط استطاعوا أن يعرفوا المقدمة، كان بإمكانهم الاحتفال باستمرار كراهيتهم مشاهدينه متجدداً بجولات خادم الفندق، محملاً بالطعام، و صحيفة تحت ذراعه، حتى البيت باللون الأبيض والأحمر الذي كانوا يتظاهرون أنه مقفل كي لا يشعروا بالخجل. كانوا يحصون الزجاجات التي كان يحملها العامل إلى

Twitter: @ketab_n

المدير وكانوا يشغلون ساعاتهم متخيلين مشاهد من حياة الرجل والشابة منعزلين هناك في الأعلى، ليس لهم علاقة بالعالم بشكل فظ.

كان الممرض يتكلم عن فضيحة وعار عام، كان الوقت ليلاً عندما أشعلتُ المصابيح وأمرت الصبي ليفي أن ينتبه للمتجر بينما ذهبتُ لأتناول كأساً ومتحدثاً عن حالات وفاة، حالات شفاء وتسعيرات مع مدير الرويال. خرجت إلى البرد الأزرق والرمادي، إلى الريح التي بدا أنها لم تهبط من الجبل، وإنما تشكلت في أغصان أشجار الطريق ولتهاجمني من هناك، مرة تلو الأخرى، في كل خطوة تقريباً، شغوفاً ومبتهجاً. كنت ذاهباً ورأسي مطرقاً، سامعاً محركاً كان يوجد فوق مصنع الطائرات، محللاً أن مدير الرويال سيعلن، بخوف مزيف، بأمل طفولي، شتاء حافل بالثلج، بطرق منقطعة، عندما لاحظت الدوائر المتقطعة للضوء فوق أرض الطريق. توقفت، انتشر الضوء الأصفر للفانوس في وجهي وسمعت الضحكة، كان صوتاً جافاً، بقصد مصنوع للتحدي. عاد الرجل ليضع الفانوس في الأرض، نظر نحو الغيوم، وأطفأه.

- لقد جلبت الفانوس من أجل طريق العودة - قال - لقد اكتشفته في المرآب. إنه لقاء مصادفة، لأنك كنت ذاهب. لكني أتيت لأبحث عنك. أقصد، علي.أن أتكلم مع حضرتك والتفاوض.

كان بلا حراك، طويلاً جداً، معطياً ظهره لشعاع الجبل الأخير،

Twitter: @ketab_n

أسود ومشعث الشعر. هزت الريح معطفه لتجعل الصوت يختلط بصوت سعاله، كان الرجل باسطاً يده حامياً الفانوس.

- لم أعرفك - قلت، دون أن أعرف إذا ما كان علي أن أمد يدي له، مفكراً بشكل سريع في قصته -. لنذهب إلى المتجر، هل تريد؟ على الأقل هناك لا يوجد رياح.

لحقني دون كلام، خاطياً كما لو أنه يسحق شيئاً. «إنها المرة الأولى التي يتكلم بها، فكرت عند دخولي المتجر، كل ما كان سابقاً كلمات أحادية، همهمات، ايماءات، كلمة واحدة فقط. إنه سكران، لكن ليس من الكحول، وهو بحاجة لأن يستمر في الكلام، كما يمكنه أن ينغمس والغرق ويريد أن ينتهي بأسرع ما يمكن».

دخلتُ فاركاً يداي، نازعاً ملابسي، رغم أن البرد والريح كانا شيئاً ما أيضاً في المتجر. لم أرد أن أعود للنظر إليه. ضربت كتف الصبي ليفي الذي كان بفم مفتوح، مذهولاً، بالقبعة حتى العينان، خلف المنضدة. بقينا لوحدنا وملأت كأسين بشراب الفيرمو. أزاح يده عن شباك النافذة وأتى نحوي، مبتسماً والذراعين مبتعدين عن الجسد، هازاً الفانوس الطويل من النيكل. انعطف ليسيطر على السعال وعاد للابتسام، محمراً، دامعاً.

- عفواً - تمتم -. إن لم تمانع، أفضل جعة.

Twitter: @ketab_n

سكبت له ما طلب وقلت «صحة» قبل الشرب، دون أن أنظر إليه حتى الآن. بدأت بالتدقيق في المعطف، أسود، فضفاض للغاية، بأزرار كبيرة جداً وبياقة مخملية، جديد تقريباً.

- حضرتك كنت ستخرج - قال. لا أريد من أجلي أن... إنها مجرد دقيقة.

- نهض ونظر حوله، جاداً، مستغرباً، متفحصاً. عاد ليدير رأسه، أكثر هدوءاً، رفع الكأس وأفرغها. نظر إليَّ دون أن يعنيه رؤيتي، الشفة مرفوعة وثابتة. لمس المنضدة بطرف أصابعه ليحافظ على ثباته، داخل المعطف الأسود، معطياً رائحة، عفى عليها الزمن، كان يستعرض عظام الرسغين وحنى رأسه لينظر إليها، بالتناوب، رؤوفاً، وبمحبة، وبخلاف ذلك، لم يكن أكثر من عظام الوجنة، قسوة الابتسامة، لمعان العينين، نشيط وطفولي. لم أصدق أنه كان يمكن أن يصنع تعبيراً بحركات بسيطة: أضفت إليه جبين متسع وأصفر، هالات عيون، خطوط زرقاء على جانبي الأنف، حاجبين موصولين.

- أعطني كأسا أخرى - قال -. الأمر شديد البساطة، لقد قطعوا عنا المؤن. كان يمكنهم تحمل الأمر لبضعة أشهر فقط، لكنني تأخرت، لم أكن قادر على الانفجار في الوقت المحدد داخل حدود اللياقة، كما كانوا هم ينتظرون. ها أنا، ما زلت، أسعل واقفاً. هكذا أنا،

Twitter: @ketab_n

أصنع مشاريع، أؤمن بها، أقسم، ثم لا ألتزم بما أقسمت به بعد ذلك. لا أريد أن أثقل عليك، اعذرني. عندها، بالتحديد اليوم، في الفندق، نفد صبرهم. أحضر لنا العامل في منتصف النهار ربطة الطعام وقال أنه لن يعود. كان يشعر بالخجل الشديد، كان يفرك الأرض بقدمه، حتى أنه من الممكن قد يكون أشفق علينا. دفعنا له وأهديناه مالاً.. وهي، في السر، خرجت من الغرفة حتى لا أراها تبكي. إنها في حال سيئة، بالطبع، لقد صارت مسؤولة عن شفائي، عن سعادتي. ورثت شيء من المال من أمها وامتلكت النزوة أن تصرفه في هذا، أن تشفيني. أخيراً، لقد كنا متفقين بأنه من الضروري أن نتابع بتناول الطعام حتى أنفجر. وهكذا أتيت لأراك، لأسألك إذا ما كان بإمكانك أن توصل الطعام لنا، مرة أو مرتين في اليوم، ولوقت قصير. ليس لأني أفكر أنني سأموت، لكن ربما نغادر قريباً.

قلت له نعم، كاذباً، لأني لم أكن أعرف كيف يمكنني الحصول له على وجبتين يومياً، متسائلاً لماذا لجاءوا لي وليس الفندق أو النزل. كان هو مقابل المنضدة، جانبي وأخرق، لاعباً بضوء فانوسه لأنه لم يخطر بباله جملة ما للاستئذان والذهاب.

سكبت له مرة أخرى، تخيلت أن الشابة ستنتهز فرصة غيابه هناك في الأعلى لتبكي أكثر قليلاً.

Twitter: @ketab_n

عجوز من الجبل كانت قد قصّت أنها اقتربت ذات أحد من البيت لطلب كبريت، وأنه كان هناك نافذة مفتوحة والرجل وحيداً، واقفاً، عارياً، ناظراً إلى نفسه في مرآة الخزانة، محركاً ذراعيه، عارضاً ابتسامة، بدهشة خفيفة. ولم يكن، معيداً بناء القصة أنا، لم يكن انتهيا من الاهتزاز في السرير وأن الرجل شاهد نفسه عند مروره أمام المرآة. كان قد تعرى ببطء أمام الخزانة حتى يتعرف على نفسه، هيكلاً عظمياً، ببقع من الشعر مختلطة بشكل متفق عليه وليس استهزائياً بشكل مقصود، بالذاكرة المصرة على ما كان عليه جسده، غير واثق من عظام الفخذ إن كان بإمكانها أن تحتمله هو والعضو المتدلي. ليس فقط نحيلاً في المرآة، بل منحّلاً نفسه، كلما تشجع على النظر والقياس.

هز يداً في جيب المعطف لكني تكلمت قبل أن يخرجها.

- لا شيء. أدعوك إلى الشراب. الأمر مرتب، طعام لشخصين، مرتين في اليوم.

ضرب الحائط بضوء الفانوس وابتسم، بفخر بطئ، كما لو أنه أصاب للتو.

- شكراً. سيكون جيداً مهما أرسلت. لم تعد تأتي رسائل. الحقيقة أنني طلبت أن لا يكتبا.

تحرك ليواجهني، وحافظ على الابتسامة السلبية. كان يشيخ

Twitter: @ketab_n

وكان ميت، مُدمر، مفرغاً، لكن مع ذلك، أكثر شباباً من أي مرة سابقة، مستنسخاً الرأس الذي كان مستلقياً في الوسادة، أيام المراهقة، عند خروجه من الاحتقان الأول. صنع ضوضاء من ابتسامته ومد لي يده، رأيته يعبر الباب، جريئاً، مندفعاً في الريح بالمعطف الطافي الذي لا بد أنه زررّه ذات مرة: رأيته يسحب الفانوس ويرفعه.

لم أعاود رؤيتهما خلال خمسة عشر أو عشرين يوماً، كانوا يأخذون له صرر الطعام من الرويال والآن كان هو من يستقبل مأمورية - الصبي ليفي - وكان يدفع له يومياً.

عادت الشابة لتظهر مجدداً في ثرثرات الممرض، هابطة الجبل ذات أمسية لتبحث عن غونز في الفندق منتظرة له في الشرفة، مبتسمة وصامتة مع العمال، ومع النزلاء الذين استطاعوا التعرف إليها. في نسخة الممرض، رفع غونز كتفيه وقال لا، بعد ذلك أخذ يهمس برأس مائلة تجاهها وتجاه الطاولة، نظرت الشابة من فوق جسد الطبيب إلى البعيد كما لو كانت وحيدة. أخيراً شكرته وعرضت أن تدفع فناجين القهوة، رافقها غونز إلى بوابة الفندق وبقي لبرهة ويديه في جيبي البنطال، يتطلع إليها وهي تبتعد وتصعد الجبل، والسترة المنتفخة متقدمة في الظل الأول.

في قصة الخادمة - لقد عدلت عن فكرة الزواج من الممرض،

Twitter: @ketab_n

وصلت إلى المتجر وحيدة وفي الساعات التي لا يوجد هو فيها - هبطت الشابة ذات ليلة لتقتلع غونز من السرير وأظهرت للذين كانوا يتسامرون بخمول في البار، وجه فيه من الخوف أكثر من الحزن. غونز، بدون حماس، وافق أخيراً على الصعود حتى الشاليه ضاغطاً ذراع الشابة.

عدت لرؤيتهما، على حين غرة، قبل أن يتمكن الخادمة أو الممرض من أعلامي أنهما ذاهبان. اختارا الصباح، في السادسة، ليصلا معاً إلى المتجر، وحيدين في البرد، كل منهما مع حقيبته.

- مرة أخرى - قال الرجل، مستقيماً.

جلسا معاً بجانب النافذة وطلبا مني قهوة. هي، مخدرة من النعاس، تابعتني لبرهة بابتسامة ساعية لتشرح ولأتركها في سلام. رأيت عيونهم المؤرقة، الوجوه الصلبة، المشبعة، شديدة المراس. كان من السهل علي تخيل الليلة التي قضياها، استغويت نفسي، في الإثارة الصباحية، مركباً تفاصيل لساعات السهاد والعناقات النهائية.

ملتفة بالمعطف، بالصوف المنسوج، بقبعة زرقاء لمتزلج، كانت الشابة ترمش ناظرة إلى الخارج، كان وجهها مدوراً، صبيانية، متفحصة. بساعة ضخمة ترقص في ساعة اليد، فتح الرجل يد واسعة ليلمس فكها، وحيد ومذهول أمام فنجانه الفارغ. كان البخار المخيم

Twitter: @ketab_n

للصباح خلف الزجاج والنوافذ، والشمس تظهر بشكل متقطع، و البرد قد أصبح واضحاً في وسط الأرض الترابية للمتجر.

- سنذهب إلى المصحة - قال الرجل عندما اقتربت لأقبض ثمن القهوة لأنه كان قد هز ورقة نقدية في الهواء، جعدت الشابة الأنف والفم لتقول شيئاً، لكنها تابعت ناظرة الصباح خلف النوافذ - البارحة قلت للصبي، على أية حال، كنت أريد أن أخبره أن الأمر انتهى. وكنت أريد أن أشكره.

استندت على الطاولة وأكملت بجملة مزيفة، طالباً الصفح عن نوعية الطعام، كما لو أني الذي كنت أعدها. مر أحد الرعاة وهو يقود بقرة بجرس. كان الرجل يمسك بعنق المرأة، مستمعاً للعصافير، أصوات المحركات الأولى، نهاية ليلته.

- يقول الدكتور غونز أنه أكيد - أخبرني الرجل بعلامة من يده، بابتسامة قذرة ومنبهة، بصوت ما كان بإمكانه إيقاظ الشابة إذا ما نامت - ثلاثة شهور في المصحة، نظام حجر.

- إن غونز طبيب جيد. ولديه الكثير من الخبرة.

- الكثير من الخبرة - كرر ببطء، مستمتعاً، ناظراً إلى وسط الصالون، بالضبط المكان حيث كنت أنا جالس متكوماً من البرد، الآن

Twitter: @ketab_n

كان الوجه يسع في اليد، أطراف الأصابع كانت تلمس الشعر الطويل وغير المتكافئ حول الصدغ - وبعد ذلك، من جديد. هل تنتبه؟ فقط ثلاثة أشهر، وحتى لو كانت ستة.

بدا لي أنه لم يرفع الصوت، لكن كفت هي عن النظر إلى سحابة البخار في النافذة وركزت العينان، مثل الرجل، في وسط أرض المتجر. الزبون الأول الحقيقي دخل بتحية صاخبة وغير مباشرة، الاحتكاك الحزين للصندلين، كان يرتدي قبعة، شاربين طويلين، ووشاح أسود. طافت يد الشابة صدر الرجل، صعدت حتى ضغطت الأصابع المملاقة التي كانت تمسك بالرأس.

يكتسحه البرد مع سعال شديد، ملّس الرجل ذو الوشاح الأسود ورقة فوق المنضدة وطلب مني كأساً. بينما كنت أملأ الكأس رأيت سيارة المصحة المطلية حديثاً تقترب، متمايلة بلطف. حزرا الشابة والرجل وأخذا بالنهوض بمشقة، مخدران، لم يحيوني عند الذهاب، حمل هو الحقيبتين، أخذت هي بالمزاح مع السائق الذي كان قد هبط من السيارة ضاغطاً القبعة على بطنه.

ثلاثة أشهر، كان قد كذب غونز، ستة أشهر كان قد وافق الرجل. تخيلتهم ثابتون في أسرّة بيضاء حديدية، هناك في الأعلى، مودعين بصفة مؤقتة في غرفة المصحة، أنوف وذقون موجهة بتصميم نحو سقف

Twitter: @ketab_n

كلسي أبيض، يمثلون سوء الفهم، متفقين فيما بينهم على الانتظار دون احتجاجات، دون تعليقات سخيفة، في الساعة التي سيكتشف الآخرون خطأهم ليقرروا، باعتذارات صغيرة، بعبارات نافية للوقت، بربتات ودية، أعادتهم إلى العالم من جديد، للتشرد، للشكوى، للتأجيل. تخيلت الفجور الخفي، مطالبات الرجل، الرفض، الالتزامات وغضب الشابة الذي لا يعرف الرحمة، مواقفهم الذكورية العنيدة.

كان قد مضى أيام قليلة من الأشهر الستة أو الأشهر الثلاثة عندما عادت بمساعدة الصبي ليفي، شرعت بتنظيف المتجر ومستبقاً عمل الحسابات. عندها عدت لأرى، في عمق درج الرسائل، تحت الكتاب الأسود الصغير للرسائل المسجلة، الظرفين بالخط العريض الأزرق والتي لم أشأ أن أعطيها للرجل عندما وصلتا، في الصيف. لم أفكر بذلك كثيراً، وضعتهما في جيبي وقرأتهما تلك الليلة، وحيداً، بعد أن أقفلت الستائر. واحدة، الأولى، لم تكن ذات أهمية، كانت تتكلم عن الحب، عن الانفصال، للشعور المخمن أو المفروض من خلال عبارات أو أفعال في الماضي. كانت تتكلم عن مقاصد أو اكتشافات، عن مفاجآت، عن انتظارات حوفظ عليها طويلاً. أما الثانية فكانت مختلفة، الفقرة الأولى تقول: «وماذا يمكنني فعله، الآن أكثر من أي وقت مضى، معتبرة في النهاية أنها هي من دمك وتريد أن تنفق مالها بسخاء لتعيد لك

Twitter: @ketab_n

الصحة. لا أتشجع على القول أنها دخيلة لأني متأملة في الأمر جيداً فأنا التي تقف بينكما. ولا أستطيع أن أصدق أنك تقولها من قلبك أن ابنتك هي الدخيلة، عارفة أنني أعطيتك القليل وأنني كنت عائقاً.».

شعرت بالخجل والغضب، شعرت بالقشعريرة والخجل مني وحتى من جلدي خلال دقائق طويلة، وكان يتنامى الغضب داخلها، بالذل، متحركاً كالأفعى، لكبرياء، مضطربة. فكرت بفعل بعض الأشياء، التسلق نحو الفندق، وأخبار ذلك للجميع، أن أسخر من الناس هناك فوق كما لو كنت قد عرفت ذلك منذ البداية وأنه كان يكفيني النظر إلى وجنة، أو عينين الشابة في حفلة نهاية العام - ولا حتى هذا: القفازين، الحقيبة، صبرها، قلقها - حتى لا أشارك الآخرين في خطاهم، حتى لا أساعد برغبتي، غير الواعية، على هزيمة واختناق المرأة التي لم تكن تستحق ذلك، فكرت بالذهاب إلى الفندق والمرور بينهم دون أن أنبس ببنت شفة عن القصة، حاملاً الرسالة في يدي أو في جيبي. فكرت أن أزور المصحة، أن آخذ له صندوقاً من الفاكهة والجلوس بجانب السرير لمشاهدة لحية الرجل تطول بابتسامة ودية، لتنفس الصعداء سراً، منفرجاً، في كل مرة تداعبه هي بخجل في حضوري.

لكن كل أثارتي كانت سخيفة، كان الأجدر بالمرض أن يشعر بهذا بدلاً مني. لأنه، إذا افترضنا أنني أصبت في تفسير الرسالة، لم يكن يهم،

Twitter: @ketab_n

في العلاقة ما هو الرابط الرئيسي الذي يجمع الشابة بالمرأة. لقد كانت امرأة، أخرى، على أية حال.

كان كل ما فعلته هو إحراق الرسائل ومحاولة النسيان، واستطعت، أخيراً، معيداً إصلاح نفسي بفشل متنامي، فقط أمام نفسي، مزدرياً إمكانية أن يسمعني المرض، غونز، الرقيب واندرادي، مكتشفاً ومغطياً وجه الرجل، رافعاً كتفي، مبتعداً عن الجسد في السرير للتوجه نحو الغرفة في بيت البرتغاليات، باتجاه ليلة برد قارس، وقائلاً بصوت خافت، برحمة متثاقلة، بازدراء مغمى عليه أن الرجل لم يتبقى له شيء آخر سوى الموت ولم يكن يريد مشاركة أحد بذلك.

- ماذا؟ سألني المرض، باحترام، غير واثق، كابحاً الإثارة.

خرجت واستندت على باب الغرفة، مرتجفاً من البرد، ناظراً لأضواء الفندق. كان يكفيني وضع اكتشافي في الحديث في بداية القصة، حتى يكون كل شيء بسيط ليمكن التنبؤ به. شعرت أني مليء بالسلطة، كما لو كان الرجل والشابة معاً، وأيضا المرأة الكبيرة والطفل، كانوا قد ولدوا من رغبتي لعيش ما كنت أنا قد عزمت أو صممت عليه. كنت مبتسماً بينما عدت لأفكر بهذا، بينما كنت أقبل الغفران للشغف النهائي لبطل كرة السلة. كانت رائحة الهواء باردة، وجاف، ليس له رائحة أي نبتة.

Twitter: @ketab_n

دخلت في الغرفة، مليء بالخير، قاطعاً على الرجال الأربعة همساتهم. طفت البيت ببطء، نظرت ولمست بطرف الأصابع المجلدات المطبوعة، الستائر، الوسائد، الأغطية، الزهور الجافة، ما كانت تصنعه وتركته النساء الأربعة الميتات هناك، تفاهات كانت قد انبثقت من أيديهم، بين آليات وثرثرات حمقاء، توجسات وتمردات، نصائح ووصفات مطبخ. أحصيت المرارات تحت السقف المدعوم بدعامات سوداء، جديدة، غير مفيدة. فكرت، ساهياً وبدون احترام، في عذراوية الشقيقات الثلاث وصديقتهم، امرأة شابة، شقراء، سمينة. اكتشفت في الغرفة الخلفية كوم من الصحف التي لم تُفتح أبداً، التي كان يحضرها عامل الفندق، وفي المطبخ صف من زجاجات النبيذ، جديدة، دون أن تفتح.

عدت، خطوة خطوة، حيث كانت الجثة والآخرون.

- لم يمتلك صبر، يا سيدة - شرح غونز لامرأة نحيلة، برأسها مغطى بشال.

- إنه هكذا - قال اندرادي، متململاً وحزين.

تكلم الممرض عن إجراءات وتفاصيل الدفن مع الرقيب، ابتسم عندما رآني أدخل ورغب أن يسألني شيئاً، لكني تحولت نحو الحذاء والبنطال للرجل الميت، باتجاه الشكل غير المفهوم تحت الغطاء.

- دم قليل يا سيدتي - أخبر الممرض، بنبرة استجواب موجهة لغونز.

Twitter: @ketab_n

- ما كان ينقصه - قال الطبيب مازحاً وهو يتثاءب.

نظرت أنا نحو السرير بكل قواي، معتقداً بإمكانية اكتشاف سبب طلب صحف لم يقرأها، لماذا اشترى الزجاجات ولم يفتحها، معتقداً أنه يهمني معرفة ذلك.

- ما رأيك لو تركت لك الشهادة؟ سأل غونز.

- كما تشاء أيها الطبيب - قال الرقيب -. لكن إذا ما كان من الممكن الانتظار قليلاً...

وهناك كان، في الأرض، المسدس الداكن، قصير، مناسب، كان هو قد أحضره مخفياً له تحت بياض القمصان والوشاحات وكان يحمله، في الجيب أو في الخصر، مخبئاً له بمكر ووقاحة، عارفاً أنه كان يخفيه عن نفسه، مسروراً ومتحصناً لأنه كان بإمكانه أن يخبئه عن المرأتين.

كان الرقيب وغونز قد خرجا إلى الغرفة لانتظار المفوض، كان يصل الضجيج البطيء للكلمات فقط، صورة لخيوط البخار من الأفواه. أتت من خلفي يعتريها الارتباك والفضول والخوف، بدأت المرأة النحيلة بالسؤال.

- ألم تره؟ قال الممرض سعيداً - إنه طبيعي. أكثر نحافة، يمكنه ذلك، أكثر هدوءاً - توقفت وأنا أعرف أنها كانت تنظر إليَّ بحزن، أعادت قصتها بهدوء، حتى لا أعود لسماعها.

Twitter: @ketab_n

- لقد كان منتهياً رغم أنهم لم يقولوا له ذلك أبداً. حضرتك تعرف كيف هو. منذ عشرين يوماً وأنتما في المصحة وكنا نخفف عنه بالحقن. نظام صارم للغاية. لا لأسوأ ولا لأحسن. سعيد دائماً، لقد كان نبيلاً. كانت الشابة معه. لا أدري، سيدتي، تعتني به. وهذا الصباح، عندما استيقظت هي ولم يكن المريض في الغرفة خرجنا لنبحث عنه في كل المصحة، ثم صعدنا بعد أن علمنا أنه صعد في سيارة المصحة. السائق معتاد، أناس بالكاد يمكنها السير ويحلو لها أن تتجول. لا يمكن، سيدتي، هكذا هي المصحة، حرية. لكنه لم يعاود الظهور، مل السائق من انتظاره، وكنا لا نعرف ما نفكر حتى اندرادي، هنا، اتصل بنا.

- إنه هكذا، سيدتي - أكد اندرادي، الآن كنت أنظر إليهم، مستمتعاً، مهتزاً لأحس بالدفء - قالوا لي أنهم رأوه يدخل منتصف النهار، رغم أنه أعاد له المفاتيح، ولم أرد أن أصدقه. أنا لم آتي حتى أنظف. لكن كان هناك نافذة بضوء عند هبوط الشمس وأتيت لأقرع الباب. حسبت، عندما فتحت الباب ودخلت. أنه ربما كان قد احتفظ بمفتاح للمدخل من المطبخ.

- وكان ما يزال شاباً، المسكين - قالت المرأة، حاولت أن تطفق بالبكاء.

الممرض، اندرادي وأنا قلصنا الأكتاف وسمعنا على الفور محرك

Twitter: @ketab_n

السيارة، متوقفة. الرقيب وغونز تمشيا في الغرفة، ضاربين في كل خطوة، كما بشكل مقصود، الصمت اللامع والبارد، صلابة الليلة المتجردة.

- المفوض - أعلن بوقار المرض والعجوز عادوا ليقولوا نعم، ورؤوسهم مطأطأة.

جلستُ في الأريكة، مرتعشاً في سلام، فضلت أن لا أتحرك عندما دخلت الشابة وذهبت مباشرة إلى السرير، نسخت ببطء عجيب حركتي في الاكتشاف والتغطية.

كانا الرقيب وغونز يحتلان الباب، العجوز والمرض صارا نحيلان جانب الحائط، عاد اندرادي بالقبعة في يده. دون أن يتنفس تقريباً، نظرت إلى الشابة التي كانت تحني وجهها فوق الكتلة التعسة، الحذاء، البنطال والأغطية. لقد كانت مسمرة، دون دموع، مقطبة، متأخرة في فهم ما كنت قد اكتشفته قبل شهور من الآن، المرة الأولى التي دخل فيها الرجل إلى المتجر - لم يكن لديه أكثر من ذلك ولم يكن يريد أن يشارك أحد به -، محتشماً، خالداً، لا يقهر، جاهز بدون وعي، لأي ليلة مستقبلية وعنيفة.

انتهـــــت

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الوداعات

اونيتي هو من أحد أعظم كتاب أمريكا اللاتينية، فهو بنفس الأهمية للأدب في هذه القارة كما كان جان بول سارتر في فرنسا في حقبة ما بعد الحرب. في الواقع، لقد نشرت كلا الروايتان "الغثيان" و"البئر" في حدود ١٩٣٩.

الجميع يخشون اونيتي. على الأقل هذا هو الانطباع الذي تسببه لي قراءة العديد من الدراسات، الاستعراضات والمحاولات في تحليلات أعماله. أنا، أعترف، أيضاً بأنه لدي خوف معين من "الولوج في عالم اونيتي"، إنه في غاية الصعوبة، مبهم جداً. لكن في الوداعات، يبدو لي، إمكانية تجاهل هذا الخوف، لأن محاولة كاتبه لإشراكنا، يجعلنا نكتشف كم نحن "أولاد عاهرة" هي واضحة. والتقنية التي يستخدمها لإقحامنا في مخططه هو، الشديد البراءة، للمبجل هنري جيمس: تقنية وجهة النظر.

تقص الوداعات قصة بسيطة للغاية: "رجل يصل إلى مدينة في الجبال، حيث يتعالج مرضى السل. غير مكترث لكنه يرفض بشدة الاندماج في الحياة الصحية للمشفى، في التشجع للأمل، حيث يعدي المدينة بأكملها. إنه صموت، لا يقبل. يعيش فقط من أجل الرسالتين (الظرف المكتوب بخط اليد، والمكتوب على ماكينة بأحرف بالية) اللتان تصلان بشكل متواصل وأنهما هما الطريق التي تجعله يتواصل مستمراً مع العالم الخارجي.

إن القارئ في الوداعات، هو أحد شخصيات الرواية، بل لربما هو أكثرهم أهمية. لكن هل نحن القراء، مستعدون لذلك؟

وولفغانغ ا. لوتشتينغ

نينوى للدراسات والنشر والتوزيع

نيل وفرات.كوم
www.neelwafurat.com

9 789933 456764